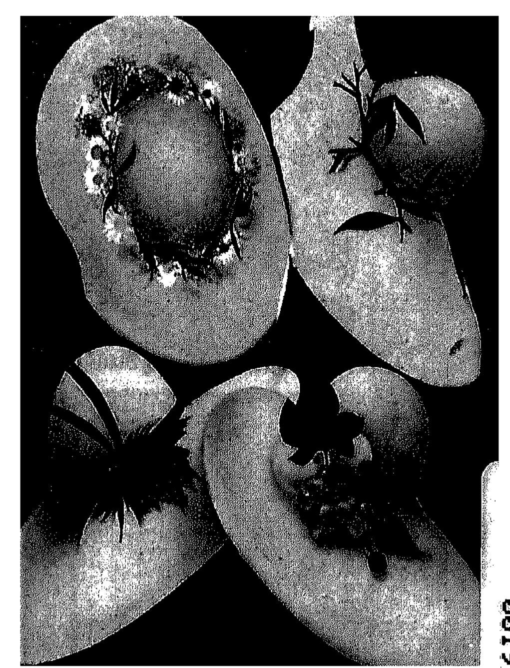
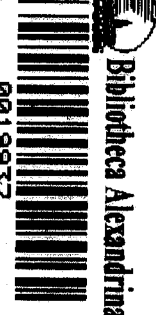
Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جورجي امادو

بلاد الكرنفال



ترجمة
مصطفى كريم






Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بلاد الكرنفال


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جورجي امادو

بلاد الكرنفال

ترجمة
مصطفى كريم



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكتاب: بلاد الكرنفال

التأليف: جورجي أمادو

الترجمة: مصطفى كريم

الناشر: دار الفارابي – بيروت – لبنان
ص.ب. ٣١٨١/١١ – ت: ٣٠١٤٦١ – فاكس: ٣٠٧٧٧٥

التنضيد: شركة المطبوعات اللبنانية ش.م.ل.

الطبعة: الأولى ١٩٩٧

جميع الحقوق محفوظة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تنبيه

نشرت "بلاد الكرنفال" في البرازيل سنة ١٩٣١ وهي أول رواية كتبها جورجي أمادو. وبناءً على رغبة المؤلف الصريحة، كان لا يمكن قراءة هذا "العمل العائد إلى أيام شبابه" والذي كتبه وهو في الثامنة عشرة من العمر، إلاّ باللغة البرتغالية. وفي سنة ١٩٨٤ فقط، ونزولاً عند طلب البروفسور لوتشيانا ناستيفانيو بيكشيو(*)، قَبِل جورجي أمادو، بصورة استثنائية، أن يصدر هذا الكتاب في إيطاليا في طبعة خاصة بمناسبة ذكرى ولادته، وعلى أثر ذلك تلطّف وسمح لي بأن أترجم أنا أيضاً هذا الكتاب القديم. فله الشكر.

أ. ر.

(*) مترجم الرواية الإيطالي عن البرتغالية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإهداء

إلى والدي

وعلى ذكرى جوانو إيفانجيليستا دي أوليفييرا


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- ١ -

بين زرقة السماء وخضرة البحر تمخر السفينة العباب نحو وطن اللونين الأخضر والأصفر. الساعة هي الثالثة بعد الظهر، والهواء ساكن، والحر شديد. البرازيل كلها (ايفوي! كرنفال!) على سطح السفينة، حيث يُرى، أيضاً، فرنسيون وإنكليز وأرجنتينيون وأميركيون شماليون.

وبين البرازيليين أصحاب مزارع أثرياء عائدون من أوروبا حيث تهافتوا على زيارة الكنائس والمتاحف، ودبلوماسيون تخالهم عارضين للأزياء الرجالية... وسياسيون كبار بلهاء مع بناتهم النحيفات الغبيات وأبنائهم الدكاترة(*) الأغبياء.

في مؤخرة الصورة امرأة فرنسية تتراءى في عينيها أسرار أعماق المياه، جميلة كما كل شيء نفيس، مغامرة محنكة يقال إنها تعرف جميع البلدان وجميع الأجناس - ما معناه أنها تعرف جميع صنوف الرجال — كانت تتقبل بابتسامة متعالية غزلاً جامحاً أرعن يغدقه عليها نحو دزينة من أبناء العائلات البرازيلية والأرجنتينية:

(*)دكتور: لقب يمنح في البرازيل للرجال البارزين في حقول الإدارة الرسمية، والمحاماة، بالإضافة إلى الحائزين على الدرجة العلمية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ كم أنت جميلة يا آنسة...

ـ أنا أبذل حياتي فداءً لحياتك...

ـ إشارة منك وألقي بنفسي في البحر...

ـ أتمنى أن تغرق السفينة لأثبت لك كم أحبك...

كل هذا الكلام كان يقال بلغة فرنسية رديئة، ورديئة إلى حدٍّ لا يحسدهم معه عليها الفتيان الذين يقرأون ديكوبرا ويكنون حماساً وطنياً كبيراً لـ تيرادانتس.

كل هؤلاء الناس كانوا يعرقون في ثيابهم الأنيقة السميكة المصنوعة في باريس أو لندن، بأغلى الأثمان. كانوا كلهم يعرقون ما عدا الفرنسية، التي ترتدي فستاناً بسيطاً من الموسلين الأبيض. إنها جميلة حقاً. عينان خضراوان بلون البحر، وبشرة ناصعة البياض. فلا عجب في رؤية هؤلاء البرازيليين والأرجنتينيين الاستوائيين يهرقون عليها فصاحتهم "العزيزة جداً على الوطن".

في مقدمة الصورة كان عضو في مجلس الشيوخ، وصاحب مزرعة، وأسقف، ودبلوماسي، وزوجة عضو مجلس الشيوخ، يتحادثون في جو من الطمأنينة البرجوازية التي يشعر بها أولئك الذين يملكون ملكوت الأرض وهم على يقين من أنهم يستطيعون شراء ملكوت السماء.

ـ أجل، كان المحصول مقبولاً هذه السنة ـ قال صاحب المزرعة ـ لكن الأسعار...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ مهلاً يا كولونيل(*)، هل تريد أن توهمني؟... فإن البن، حتى بسعره الحالي، لا يزال يدر أرباحاً خيالية... إنه ثروة ساو باولو والبرازيل.

ـ بالضبط لأن البرازيل هي ساو باولو! قالت زوجة عضو مجلس الشيوخ بلهجة تنضح بالتزمت القومي.

ـ أوه، يا سيدتي! أعذريني إن كنت لا أشاطر سعادتك الرأي، ولكن...

كان المتكلم هو الدبلوماسي. كان هذا يشغل وظيفة أمين سر السفارة في باريس، وهو أول مركز أسند إليه في خدمة الوطن و لم يترك فيه أي أثر حتى الآن. إنه من مواليد باهيا(**) ويحمل في دمه وفي شعره آثار تهتك أجداده البرتغاليين مع الجدات الأفريقيات.

ـ ...لكن هناك ولايات كبيرة أخرى... أنظري إلى باهيا يا سيدتي. باهيا، يا صاحبة السعادة، تنتج كل شيء... الكاكاو، التبغ، اللوبياء السوداء، وهي تنتج رجالاً، يا سيدتي، عباقرة كباراً... إن روي باربوزا(***) هو من أبناء باهيا...

ـ لكن اليوم، يا دكتور...

ـ أوه يا سيدتي، لا تقولي لي اليوم... اليوم أيضاً يوجد موهوبون

(*) كولونيل = عقيد: لقب عسكري يُطلق على المدنيين من ذوي الأملاك الواسعة في المناطق الداخلية البرازيلية.

(**) ولاية في شمال شرق البرازيل.

(***) أديب وخطيب وسياسي برازيلي مشهور.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كبار...

ويقول الأسقف بلهجة مصالحة:

ـ الدكتور نفسه دليل على ذلك.

ـ هذا لطف منك يا سيادة الأسقف... الكنيسة رحيمة دائماً.

وأوجز عضو مجلس الشيوخ الحديث كله، بما يعطيه موقعه من نفوذ، قائلاً:

ـ لهذه البلاد أعظم مستقبل في العالم!

ـ بكل تأكيد ـ قالها شاب وصل لتوه ـ إن السيد، بقوله هذا، قد عرّف البرازيل.

وبدت على وجه عضو مجلس الشيوخ ابتسامة رضى فتابع:

ـ إن البرازيل أكثر بلدان العالم خضرة. إنها بلاد المستقبل، بلاد الأمل... وهي لم تتجاوز هذا قطّ... أنتم البرازيليون، شيوخاً كنتم أو شباناً، أنتم الذين كنتم أو الذين أنتم الآن "أمل الوطن"، أنتم تحلمون بالمستقبل. "بعد مئة سنة ستكون البرازيل أول بلد في العالم". أنا أراهن على أن ذاك المؤرخ البغيض بيرو فاز دي كامينيا، قد تفوه بهذه العبارة إياها عندما وجد كابرال(*) بالصدفة البلاد التي جاء لاكتشافها.

(*) بدرو كابرال: بحّار برتغالي اكتشف البرازيل نحو سنة ١٥٠٠ م.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ كلاّ! ـ قالــها الدبلوماسـي معترضـاً واضعـاً يـده علـى صـدره بحركـة مفخمة ـ إن كل أجنبي يعرف اليوم، بفضل سـلكنا الدبلوماسـي ـ دع التواضـع جانباً ـ البرازيل العظيمة، البرازيل الرفيعة!

ـ على أي حال، إن هذه الفرنسية التي تعرف العـالم كلـه، والـتي كـانت تملك بيتاً للدعـارة في بكـين، وكـان لــها عشـاق مـن الزنـوج في مسـتعمرة الكاب، والتي كسبت مالاً وفيراً في مونــتي كـارلو، تعتقـد أنهـا مسـافرة إلى بلاد تدعى بيونوس آيرس(*) ولــها عاصمـة تدعـى الـبرازيل وهـي مدينـة لا يرتدي سكانها سوى الوزرة. وبوسعي أن أؤكد لك يا صاحب السيادة أنها ماضية إلى هناك لكـي يتسنّى لــها أن لا ترتـدي سـوى الـوزرة، لأنهـا مـن القائلين بالعودة إلى الحياة البدائية.

ـ إنها بلا أخلاق، هذا صحيح.

ـ ستكون الخيبة نصيبها، مسكينة!

ـ لكن البرازيل قد تقدمت كثيراً يا دكتور ريجر، من وجهة النظر الدينيـة على الأقل. فاليوم...

ـ الخرافات هي السائدة اليوم. فالدين في الشمال، يـا صـاحب السـيادة، خليط من التيمية(**) ومناجاة الأرواح والكثلكة. على أي حال أنا لا أعتقـد

(*) بكين: عاصمة الصين حالياً. الكاب: مستعمرة في جنوب أفريقيا. مونتي كارلو: إمـارة مونـتي كارلو الفرنسية على المتوسط. بيونوس آيرس: عاصمة الأرجنتين.

(**) التيمية: التأليه والتقديس الأعمى، عبادة الأشياء المسحورة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بأن المسيح بشّر بديانة ما. فهو لم يكن سوى يهودي رومنطيقي متمرد، والدين هو من صنعكم أنتم أيها الكهنة والباباوات... على أنكم تخطئون إن كنتم تظنون أن هذه الديانة هي الغالبة في البرازيل. فهناك تزوير أفريقي لهذه الديانة. إن الماكومبا(*) في الشمال تقوم مقام الكنيسة التي تقوم محافل مناجاة الأرواح مقامها في الجنوب. إن مسألة الدين في البرازيل هي مسألة خوف.

كان لهذا الكلام وقع الفضيحة على زوجة عضو مجلس الشيوخ، فرسمت على وجهها إشارة الصليب. أما الدبلوماسي فكان يبتسم ابتسامة جوفاء؛ وأما السقف، الذي كان ذكياً، فقد شاء أن يحتجّ، لكن الوقت دهمه، إذ أن أحد خدم السفينة كان قد حضر وهو يهزّ جرساً كبيراً في يده، داعياً الركاب إلى تناول الطعام.

وسرعان ما استجاب الجميع لنداء صاحب الجلالة البطن.

***

كان باولو ريجر على سطح السفينة غارقاً في التفكير. فهو عائد إلى البرازيل بعد غياب دام سبع سنوات. وكان لا يزال في المدرسة حين فقد أباه الذي كان صاحب مزرعة للكاكاو غنياً جداً في جنوب ولاية باهيا: كانت آخر رغبة صدرت عن أبيه هي إرسال "ابنه" إلى أوروبا كي يتعلم. ولذا لم

(*) الماكومبا: طقس أفريقي ذو تأثير مسيحي يمارس فيه الرقص والغناء مع الفحش.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يكد باولو ينهي دروسه الثانوية حتى توجه إلى باريس للحصول على شهادة البكالوريا. كان والده يريد أن ينال ابنه شهادة عالية. لكن الحصول على شهادة في البرازيل كان شيئاً مبتذلاً جداً، فما كان يمكن أن ينجح إلاّ دكتور آتٍ من أوروبا.

في باريس، كان من الطبيعي أن ينشغل باولو ريجر بأي شيء ما عدا دراسة الحقوق. وعندما نال شهادته أخيراً كان قد أصبح رجلاً سئم كل شيء، وقد لوثته كل أدبيات ما قبل الحرب، ذا فكر قوي، وله أصدقاء بين المثقفين، وكان يرتاد أندية الصحافيين، ويتقن صنع الكلام، ويناقش ويتخذ دائماً موقف النقيض.

الموقف النقيض كان دائماً موقفه. وهو لم يتوصل إلى إيجاد قاعدة لحياته رغم تفرنسه الشديد. لم يكن له فلسفة وكان يسخر من روح الجدّ عند الجيل الطالع، ويقول إن الإنسان الموهوب لا يحتاج إلى فلسفة.

كان، وهو في السادسة والعشرين من العمر، مثال الرجل الذي يتحكم به عقله، الرجل اللامبالي تقريباً، والذي ينظر إلى الحياة كمتفرج، وقد فقد الإحساس با لله منذ زمان طويل و لم يجد الإحساس بالوطن.

كان بارداً، لا يتأثر. وكانت له متع مختلفة: كان يحلو له أن يعارض أفكار جيرانه على المائدة وكان يهوى درس النفوس. فهو قد جاب باريس كلها، من الصالونات الارستقراطية إلى الحانات القذرة، تحدوه لذة استكشاف النفوس وتعرية العواطف وتحليلها... كان يعتقد أنه بذلك، إذا ما واجهته "مغامرة" في حياته، فسيكون مهيئاً لمجابهتها وتحليلها وتشريحها. كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يضع على عينيه نظارة أحادية الزجاجة لأنــه كــان يقــال إن هــذا النــوع مــن النظارات لم يعد دارجاً؛ وهو قد تعلم في باريس أن يرتــدي الملابــس الأنيقــة وأن يشبع كل رغباته.

إنه يكاد يعبد غرائزه. فهو يعرف جميع أنواع الرذيلة. وتتراءى في نظرتــه المتعبة، الحزينة، مأساة الإنسان الذي استنفد جميــع الملــذات و لم يشــبع منهــا. فعلى شفتيه الرقيقتين تطفو أبداً ابتسامة خبيثة، ساخرة، مزعجة.

إنه لم يعد يؤمن بالســعادة. مــع أن بــاولو ريجــر، في الواقــع، يشــعر بأنــه إنسان غير مرتوٍ. فهو يدرك أن حياته ينقصها شيء ما، لكنه لا يعلــم مــا هــو هذا الشيء، وهذا ما كان يعذبه. ولذا فإنه قد كرس حياته كلها للبحث عن الغاية. وراح يغمغم وهو على سطح السفينة يتطلع إلى الأمــواج: "أجــل، إذ أنه لا بد من أن يكون لكل حياة غاية... فما هي؟".

لكن البحر ظل غير مبال، و لم يرد عليه. وكانت الشمس المنازعة ترســم على الأفق لوحات ذات ألوان صارخة. حقاً إن الشمس أول رســام تكعيبي في العالم...

***

على مائدة العشاء كانت الفرنسية تبتسم لــه، وكــان في ابتســامتها وعــد مذهل بملذات تفوق التصور. فراح باولو ريجر يتخيلها عارية... إنهــا جميلــة بلا شك... هذه الامرأة التي خبرت الحياة إلى هذا الحد، رغم صغر سنّها، لا بدّ أن تكون امرأة مرهفة. وآلى على نفسه أن يكتشفها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت الامرأة على سطح الباخرة تتأمل عبث الأمواج البريء وعلى ثغرها ابتسامة بريئة.

اقترب باولو ريجر منها قائلاً:

ـ يا آنسة.

ـ لا تقل آنسة، بل قل جولي.

ـ آه! جولي، إنك جديرة بالعبادة!

ـ هذا كل ما تقوله لي؟ لقد قاله لي من قبل كل أولئك الفتيان الذين كانوا يغازلونني منذ قليل. كنت أظن أن عندك شيئاً أكثر طرافة تقوله لي...

ـ بالتأكيد، أود أن أقول لك إن عينيك تعدان بأشياء غير معقولة، لكني أعرف جميع الأشياء غير المعقولة، وأشك في أنك تستطيعين إعطائي جديداً ما.

ـ اليوم، الساعة الواحدة، سيكون باب حجرتي مفتوحاً... سأكون بانتظارك.

***

كان باولو ريجر في حجرته يتساءل عما إذا كان يجب أن يذهب لملاقاة جولي! إن تعباً شديداً يجتاح كل أعضائه. لقد فكر بجولي، وشعر بالخوف من عينيها. كلا، إنه لن يذهب إليها. فقد تتشبث به هذه الامرأة كالجرب في البرازيل. وهي، إلى ذلك، ليست سوى فاجرة مشهورة. ليست سوى

امرأة تحب لأجل المال، دونما حب. فأي جديد يمكنها أن تعطيه؟ المتعة؟ إنه يعرفها أكثر من اللازم. لذة الجسد... لكن الحب قد لا يكون لذة الجسد وحسب... ولربما كان شيئاً أكثر من ذلك... وهذا الشيء الآخر يعرفه. بل إنه يجزم بعدم وجوده. وسواء كان موجوداً أم لا فإن هذه الفرنسية لا تستطيع إعطاءه إياه. إنها لا تعطي سوى جسدها.. وبالطريقة إياها على الدوام. يا للتوافه! لن يذهب...

انتظرت حولي طوال الليل، عارية، حالمة بملذات تفوق التصور، ثم بكت من غيظها وهي تعضعض وسادتها... وأخيراً شتمته، ناعتة إياه بالحيوان. أما هو، فلم يدر في خلده أنها أعدت خصيصاً له الدغدغات التي لم تبعها قط لأحد... يا له من أبله!

وكان باولو ريجر يحلم بأن له عشيقة رومنطيقية تطالع هنري أرديل وتعزف على البيانو ألحاناً راقصة عاطفية جداً.

في الصباح تعالت صرخة الاكتشاف:

ـ اليابسة! اليابسة!

وبانت من بعيد بلاد الكرنفال!

ـ ٢ ـ

كان باولو ريجر متكئاً على نافذة الفندق، يطالع صحف الصباح. إنه في ريو دي جانيرو، لكنه يشعر، مع ذلك، بأن عاصمة الجمهورية هذه ليست

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البرازيل. فهي أشبه بمدن العالم الكبرى. وهذه المدن ليست مدن بلاد ما وإنما هي مدن العالم. إن باريس ولندن ونيويورك وطوكيو وريو دي جانيرو هي لكل البلدان ولكل الأجناس. كان باولو ريجر يشتهي أن يوغل بعيداً في داخل البلاد، صوب البارا والماتو غروسّو(*) وأن يحسّ عن كثب بروح هذا الشعب الذي هو في آخر الأمر شعبه. شعبه هو؟ كلا، هذا الشعب ليس شعبه. إن تربيته الفرنسية بكاملها تصرخ في وجهه قائلة إن شعبه هو في أوروبا. وهو يتذكر: البرازيليون في باريس كانوا يتكلمون بالسوء عن أرضهم. كانوا يذمونها كثيراً. أما هو فكان ميله إلى المعارضة يحمله دائماً على امتداحها. على سطح الباخرة، كان المسافرون، الذين استبد بهم الحنين، يكيلون المديح للبرازيل، بينما كان هو يتكلم عنها بالسوء. أما الآن فهو يريد تكوين فكرة عنها. يوم كان في أوروبا كان قناع الرجل المجرد من العواطف يسقط أحياناً عن وجهه فيذهب بالفكر إلى تلك اللحظة التي سيعود فيها إلى وطنه، حيث يشتغل بالسياسة، ويصدر جريدة، ويرفع اسم البرازيل عالياً.

كانت وطنيته الآنية هذه تضحك أصدقاءه فيمازحونه حولها، فكان يعتذر قائلاً: "إن كل هذا هو من قبيل الأنانية"، إذ أنه كان يريد رفع اسم بلاده عالياً كي يرفع بذلك عالياً اسمه هو، اسم باولو ريجر. أي إنه في الحقيقة كان يريد وسيلة... كانت الأنانية هي الغالبة...

(*) ولايتان في البرازيل.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان أصدقاؤه يوافقونه، فالوطن لم يكن بالتأكيد هو الغاية...

كانت الصحف حافلة بأخبارالحملة الانتخابية التي تجتاح البلاد بكاملها. فمن جهة، هناك رئيس الجمهورية الذي يريد أن يفرض المرشح الذي يختاره هو ليخلفه في الحكم، ويسانده عدد من الولايات. ومن جهة أخرى هناك الولايات المعارضة التي تريد انتخاب رئيس ينتمي إليها.

وقع نظر باولو ريجر في إحدى الصحف على هذه العبارة: "لا يزال يوجد برازيليون يعرفون أن يموتوا في سبيل الحرية". كانت هذه الكلمات تبرز في الصحيفة بأحرف كبيرة، وهي مستقاة من خطاب لأحد نواب المعارضة.

وضحك ريجر:

ـ يا لها من ميتة تافهة، أن يموت الإنسان دفاعاً عن حرية الوطن...

وتمتم خادم الفندق، الذي وصل حاملاً الفطور:

ـ هذا الرجل من أنصار بريستيس...

وراح يقدم الفطور (وفي أذنيه حفيف الأوراق النقدية التي سينالها كبخشيش) مشيداً بفضائل الدكتور خوليو بريستيس، مما أثار ذهول ريجر.

***

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان ريجر يسير في الشارع دونما هدف. كان يشعر بأنه غريب في وطنه. كان يجد كل شيء مختلفاً... وإذا كان يحس بهذا في ريو دي جانيرو فكيف سيكون إحساسه في باهيا حيث كان يزمع أن يقيم مع والدته المسنة؟... هل سيستطيع العيش هناك؟ وكان يستبد به حنين شديد إلى باريس...

كان ينبغي له أن يحيا حياة برجوازية... فلن يكون له أصحاب مثقفون... وسيصبح عقله بليداً... لربما تزوج... ولربما حتى ذهب ليقيم في المزرعة... يا لها من نهاية له، إذ سيمسي إنساناً منحطاً، فاسداً، يضنيه مرض المدنية... وأخيراً...

توقف باولو ريجر أمام محل لبيع الاسطوانات، حيث كان يُسمع نشيد عسكري شديد الإيقاع يملأ الجو نغماً غريباً، مشحوناً بالحنين وبشعور لم يفهمه باولو.

كان النشيد يزأر قائلاً:

هذه الامرأة تتحداني من زمان...

إضربها...

إضربها...

قال ريجر في نفسه:

لا بد أن تكون هذه هي الموسيقى البرازيلية، موسيقى البرازيل العظيمة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وظل هناك يستمع، مأخوذاً ببربرية الإيقاع. لا بد أن يحتوي هذا الإيقاع روح الشعب... وبما أنها تختلف عن روحه... فهو لن يقدم أبداً على ضرب امرأة.

كانت الموسيقى تهدر:

إضربها...

إضربها...

ثم استأنف السير، وبعد قليل صادف الدبلوماسي.

ـ أوه، دكتور ريجر! أنت في نزهة؟

ـ هذا صحيح أنا أكتشف ريو...

ـ ألم يسبق لك أن زرت العاصمة يا دكتور؟

ـ كلا، يوم رحلت إلى أوروبا ركبت السفينة في باهيا. وهذه المرة قررت العودة من هنا، بقصد التعرف إلى ريو...

ـ وهل أعجبتك؟ أجل، بالطبع، حسبما أعتقد. الطبيعة يا دكتور، الطبيعة الخلابة... أجمل ما في الوجود.

ـ لكني أعتقد أن الطبيعة تسيء كثيراً إلى البرازيل. إن إنسان هذه البلاد يبدو كسولاً، متوانياً... ربما كانت الطبيعة سبب ذلك... هذه الطبيعة الوفيرة الجلال، تسبب الأذى... إنها تهيمن، تسحق.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ أجل. ربما... لكنها أنجبت رجالاً عظاماً، يا دكتور. روي باربوزا مثلاً...

سبق لباولو ريجر أن قرأ روي باربوزا، لكن هذا لم ينل إعجابه... إنه كاتب مغرق في صناعة الكلام... فكان لا يفهم كيف يمكن تقديس هذا الرجل... وفوق ذلك، لم يكن لديه أفكار... وكان ذا وطنية سطحية سخيفة... ومزعجة للغاية. لا لا، بالتأكيد، إن روي باربوزا هذا لا يعني له شيئاً.

وقع هذا الكلام على الدبلوماسي خوسيه أوغوستو دا سيلفياريس وقع الفضيحة. إن روي كان عبقرياً... عبقرياً... في أعلى درجات العبقرية... حتى في فرنسا كان معبوداً.

ـ في فرنسا؟ هذا ممكن...

ـ والحقوق؟ كان روي يعرف الحقوق كما لا تعرفها سوى قلة من الناس. والمنصب الذي شغله في لاهاي(*)؟

ـ لا حاجة إلى الموهبة كي يتعلم المرء الحقوق، فالذاكرة وحدها تكفي...

وصادف الاثنان رجلاً من باهيا كان نائباً عن جنوب الولاية. كان رأس الرجل الصغير وأذناه الكبيرتان تنم عن بلاهة موروثة.

(*) المقصود محكمة العدل الدولية وهي موجودة في لاهاي بهولندا.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تولى خوسيه أوغوستو تعريف الرجلين إلى بعضهما:

ـ الدكتور أنطونيو راموس، نائب باهيا. الدكتور باولو ريجر، العائد من فرنسا إنه ابن غودوفريدو العجوز...

ـ أوه، أنا سعيد جداً بالتعرف إليه... نحن من أبناء منطقة واحدة...

ـ نحن الثلاثة أبناء منطقة واحدة... قال خوسيه أوغوستو.

جلس الثلاثة في أحد البارات لتناول كأس. لنشرب نخب باهيا، قال النائب ودار الحديث حول حملة انتخاب رئيس جديد.

كان النائب من أنصار بريستيس.

ـ آه! إن ما يبغيه رعاة البقر هو الوصول إلى الحكم... ولا شيء غير الحكم... هؤلاء لا وطن لهم ولا أي شيء آخر.

ـ أنت على حق، يا دكتور على حق تماماً... قال خوسيه أوغوستو، ثم سأل النائب بصوت منخفض:

ـ والأعمال، يا دكتور؟ هناك دائماً بعض الإكراميات، أليس كذلك؟...

ـ أحياناً... فالأمور سيئة الآن، و لم يعد مجدياً أن يكون المرء نائباً، لذلك فإن كل جهدي منصب الآن على خدمة الوطن. وسألقي حتى خطبة أحمل فيها على الانتهازيين... يجب أن تحضر لسماع هذه الخطبة. ستكون خطبة مهمة جداً.

ـ عرّج علينا يا دكتور ريجر. أودّ أن أعرّف زوجتي عليك. إنها تعشق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

باريس، وستفرح بالتعرف عليك. إنها لقديسة هذه الزوجة...

رافق باولو ريجر النائب ببصره حتى الشارع حيث كان هذا الأخير يوجه التحيات يميناً وشمالاً وكأنما هو سيد العالم والسعادة.

قال خوسيه أوغوستو: هذا الرجل كان أبله... كان يشتغل بالسياسة لأنه تزوج ابنة شخصية ذات نفوذ كبير. فلم يكن سوى صهر السيد فلان. ومقابل ذلك كله يدع زوجته تفعل ما يحلو لها... وهي أيضاً لا تساوي شيئاً. دون أي حياء ...

ـ هل النواب كلهم من هذا الطراز؟

ـ كلهم. عصابة لصوص... ليس عندهم روح وطنية حقيقية. يا له من فسق وقح. إن البرازيل بحاجة إلى ثورة. أنا كنت دائماً من أنصار الثورة. فالثورة إذا ما انتصرت ستقطع رأس عدد كبير من السياسيين، تسدد الدين الخارجي، وتدفع البلاد في طريق الازدهار...

ـ لكن يبدو لي أن سياسيي المعارضة هم نسخة طبق الأصل عن هؤلاء...

ـ طبعاً، إنهم مثل هؤلاء! لكني أعرف منذ الآن من سيكون وزيراً للخارجية: إنه صديق قديم لي... وسأحصل بالتأكيد على سفارة. آه، إنها في يدي! ثورة، ثورة... هل قرأت خطاب زعيم المعارضة في صحف اليوم؟ "لا يزال هناك برازيليون يعرفون أن يموتوا في سبيل حرية الوطن". إنك لتخال روي يتكلم... وأنا واحد من هؤلاء البرازيليين...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ أما أنا، فأرى من التفاهة أن يموت الإنسان من أجل الوطن ومن أجل... سفارة.

وضحك الدبلوماسي بوقاحة. وضحك باولو ريجر أيضاً، متمتماً:

ـ أيتها الأنانية، يا ربة العالم، يا ربة العالم...

ومر بعض الفتيان، منادين على الصحف المسائية:

"آنواتى" أطلبوا "أوغلوبو، دياريو(*) ..." "دياريو نواتى، غلوبو...". "خطاب النائب فرانسيسكو ريبيرو. الحملة الانتخابية الرئاسية. الكرنفال الآتي... الكرنفال، نواتى...".

في الخارج كانت الحشود تتدافع في فرح عظيم، مجتاحة المحلات التجارية، لتبتاع الأقمشة وأدوات الزينة النسائية الرخيصة. إن الكرنفال على الأبواب.

قال ريجر:

ـ البرازيل هي بلاد الكرنفال.

وأضاف خوسيه أوغوستو:

ـ والرجال العظام! والرجال العظام أيضاً...

وابتسم ابتسامة وطنية، ودفع ثمن المشروب، ونهض متوجهاً نحو النائب

(*) دياريو، تعني يومي أو صحيفة يومية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فرانسيسكو ريبيرا، الذي كان يمر من هناك في هذه اللحظة بالذات، ليهنئه على هذا "الخطاب الرنان".

- بلاد الرجال العظام... الرجال العظام... والكرنفال...

في بهو الفندق حصلت لباولو ريجر مفاجأة. كانت جولي هنا تطالع إحدى المجلات. أراد باولو أن يعبر سريعاً دون إلقاء التحية عليها، ولكنها رأته، ونادته قائلة:

- أنا غاضبة جداً عليك.

- كنت مريضاً. قضيت ليلة مزعجة... هذا سبب عدم مجيئي. اعذريني.

- لقد عذرتك، ولكن اعلم أني لا أصدقك. والآن هيا بنا نتناول طعام العشاء معاً...

تعشيا معاً. وفعلا أكثر من ذلك: تضاجعا. وتعلق باولو ريجر بجولي. إن هذه الامرأة الملتهبة جنساً وشهوة قد أسرته. كان يقول في نفسه إنه يريد أن يكتشف أعماقها ويحلل نفسها. وراح يعيش في بياض ذراعيها هوى مجنوناً.

- هل تحبينني؟ سألها ذات يوم.

- نعم أحبك...

- كما أحببت جميع الآخرين، أليس كذلك؟

- هل تغار؟ كم هذا مضحك...

كلا إنه لا يغار، ولكنه كان يريدها له وحده. يريد أن لا تكون لأحد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غيره. له وحده فقط... تماماً وكمالاً.

ووضع على الحاكي اسطوانة كان يحبها كثيراً. وراح الحاكي يغني:

...في بيت من بيوت كابو كلو(*)،

واحد، هذا قليل،

اثنان، هذا حسن،

ثلاثة، هذا فوق اللزوم...

وشرح لها معنى هذه الأغنية البرازيلية.

ـ أتشك بي؟

ـ كلا، أشك بنفسي. قالها بابتسامة حزينة.

***

خرج في إحدى الليالي للتمتع بجمال المدينة ففاجأه ضجيج ارتعد له، وسرعان ما رأى الشوارع غاصة بالناس والسيارات التي تعبر حافلة بفتيات في ثياب خاصة بالمناسبة. كان الجو أشبه بجنون عام.

أدرك باولو ريجر أن اليوم هو سبت الكرنفال. فركب سيارة وراح يجري

(*) كابوكلو Caboclo مؤنثه كابوكلينيا: الهجين من أب زنجي وأم هندية أو العكس. وتطلق أيضاً على الخلاسيات. والمقصود ببيت كابوكلو هنا بيت البغاء.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وراء سيارة أخرى تنقل فتيات. كانت الفتيات بنات صالحات لأحد الأدباء الأخلاقيين المهووسين... فأرسل باولو ريجر على الأجمل بينهن قليلاً من قاذفة العطر التي كان يحملها، فتبلل نهدها الذي كان يبدو أنه يريد أن يطفر إلى خارج القميص، وانفجرت في ضحكة هستيرية.

وقصد الاثنان إلى أحد المراقص. هناك، كان الازدحام داخل الصالة والرقص الذي يلصق أحدهما بالآخر يجعلان الفتاة تنهار. لقد قبلها كثيراً، وجسّها كثيراً. ولاحظ أن الجميع يتعانقون ويتجاسّون. إنه الكرنفال... انتصار الغريزة المطلق، ملكوت اللذة الجسدية...

فصاح باولو ريجر:

ـ عاش الكرنفال!

فردت الصالة كلها:

ـ عاش الكرنفال!

وازدادت الفتاة الصالحة التصاقاً به.

***

عندما خرج باولو ريجر من المرقص كانت مجموعة من الخلاسيات ترقص السامبا في الشارع. بشرة بلون القرفة، نهد شبه عارٍ، كانت الفتيات يؤرجحن أردافهن بتلذذ، في حالة من الهذيان. ورأى باولو في هذا المشهد كل شعور العنصر الذي تنتسب إليه تلك الفتيات. وأحسّ بأنه ممتزج مع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شعبه. فاستسلم للسامبا صارخاً:

إضربها...

إضربها...

وتقدمت منه إحدى الخلاسيات وصفعته على سرّته ثم تشابكا وراحا يرقصان في الشارع. حتى الأشخاص الذين يعزفون على القيثارة كانوا يرقصون السامبا بمثل الابتهاج اللاهب الذي ينتاب أولئك الذين ليس أمامهم سوى ثلاثة أيام من الحرية.

والتصقت شفتا الخلاسية بشفتي باولو ريجر. كان يود أن يصيح: "عاشت البرازيل! عاشت البرازيل!". فهو يحس بأنه مندمج في روح الشعب، و لم يخطر بباله أن هذا الشعور لا يظهر إلاّ إبّان الكرنفال، وأن الجميع، كما فعل هو طوال حياته كلها، يستسلمون لغرائزهم ويجعلون من لذة الجسد إله البشرية...

***

حينما عاد إلى الفندق كان قد طلع النهار. الطبيعة كلها تستفيق وكأنها لا تدري شيئاً من هذيان تلك الليلة. لم يجد جولي في الغرفة، فهي بالطبع قد خرجت. لا بدّ أن تكون ذهبت إلى الكرنفال.

حاول أن يضحك. رويدك، وماذا في الأمر!... إنها ليست، على أي حال، سوى امرأة ضاجعها. وما المهم في الأمر...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكن غيابها يؤلمه! يؤلمه أن يتصور جولي مع رجل آخر، في السرير. لا، هذا غير ممكن... إنه يثور على نفسه. هذا غير ممكن، ولماذا؟ بل هو ممكن. لا بد أن تكون مع رجل آخر... مع آخر، في السرير... وما شأنه هو بذلك؟... فهو لا يحبها... صحيح أنه لا يحبها؟ كلا، وإنما هو يشتهيها فقط... ولكن الحب هو الامتلاك... فإذا كان يشتهيها فمعنى ذلك أنه يحبها... إنه حقاً يحبها، هذه الامرأة الفاسقة التي تهوى الممارسات المنحرفة. والآن هي مع رجل آخر، ربما... وتضاجعه، من يدري؟ أما هي فإنها بالطبع لا تحبه.

كانت الغرفة بدونها تبدو فارغة... أما السرير، بدون جسدها الأبيض، فكان يبدو له أنه لا يطاق...

بعد ذلك ببضعة أيام قدّمه خوسيه أوغوستو إلى أحد الكتّاب الكاثوليك. كان هذا زعيم الكثلكة على الأرض. وكان في حديثه نبرة صدق أثارت إعجاب باولو. طلب الرجل إلى ريجر أن يكتب في مجلته. وكان يود سماع انطباعاته عن العرق البشري، فوعده باولو بذلك. وبعد مرور بضعة أيام أعطاه "قصيدة الخلاسية المجهولة":

أغني خلاسية المواخير،

أكواخ سان سيباستيان في ريو دي جانيرو..

الخلاسية ذات اللون القرفي،

صاحبة التقاليد،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صاحبة الأنفة،

صاحبة الأفضال،

(تلك الأفضال التي تجعلها

تفتح فخذيها السمراوين

السمينتين،

الصافيتين،

كي تشبع الغرائز غير المرتوية

عند الشعراء والفقراء

والطلبة المتشردين).

بين فخذيها النقيتين

يرتاح مستقبل الوطن.

ومن هنا سيخرج عرق قوي،

حزين،

خشن،

لا يقهر،

ولكنه عرق عظيم جداً

لأنه عرق طبيعي جداً،

ومجبول الشهوانية.

لذا، يا خلاسيتي الفواحة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في برازيلي الأفريقية
(البرازيل شريحة من أفريقيا هاجرت إلى أميركا)،
لا تكُفّي عن فتح فخذيك
أمام الغريزة غير المرتوية
للشعراء الفقراء
وللطلبة المتشردين
في هذه الليالي البرازيلية الحارة
حيث السماء تزدحم بالنجوم
والأرض تضج بالشهوة.
قال الكاتب إن القصيدة جيدة جداً، صادقة جداً.
لكنها لم تنشر في المجلة، لكونها أساءت إلى الأخلاق البرازيلية...

- ٣ -

إلى إحدى طاولات البار كان بضعة شباب يثرثرون. وكان نور المصابيح الكهربائية في الشارع يخطط الظلمة المحيطة. وعلى المفترقات كانت نساء سوداوات سمينات يبعن الـ "أكاراجيه"(*) والـ "مينغو"(**). وفي ثنايا الليل

(*) أكاراجيه: معجنات مصنوعة من الفاصوليا المقلية بالزيت المستخرج من جوز الهند.

(**) مينغو: نوع من الحلوى المصنوعة من الدقيق والحليب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت باهيا تبدو وكأنها خراب كبير لمدينة كانت بالكاد قد بدأت تزدهر.

وضع ريكاردو براس قبعته على رأسه وقال:

ـ هيا بنا نقوم بنزهة يا أصحاب.

ـ لا. يجب أن ننتظر تيسيانو؛ قالها جيرونيمو سواريس معترضاً.

ـ لكن الساعة أصبحت التاسعة، ويمكن أن لا يأتي بيدرو تيسيانو. إنه يتعب سريعاً، ومؤخراً...

ـ لكن الأصحاب يستحقون التضحية! قال أحدهم وراء ريكاردو.

ـ أوه! تيسيانو! هذا أنت... كأنك حضرت لكي تكذبني.

وضرب جيرونيمو الطاولة بيده داعياً الخادمة.

ـ أعطنا قهوة، يا حبيبتي.

ـ وماء. كوب ماء... طلب غوميز، مدير إحدى الصحف الصغيرة التافهة.

أخذ بيدرو تيسيانو كتاباً من بين يدي جيرونيمو،

ـ أوه يا صاح! أنت تقرأ خوسيه دي ألينكار الآن؟

ـ أنا أعيد قراءته يا تيسيانو. إني أحب ألينكار كثيراً...

ـ إنه شاعر جيّد... شاعر جيّد...

ـ شاعر؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ أجل، شاعر. إن "إيراسيما" قصيدة ذات موسيقى جميلة. لكن ألينكار قصّاص رديء...

لم يوافق ريكاردو براس على هذا الرأي. فهو كان يرى أن ألينكار يملك مزايا. أنه قد لا يكون قصاصاً كبيراً، ولكنه يستحق أن يُقرأ.

ـ إنه قصاص في نظر التلامذة الصغار في مدارسهم الداخلية وفي نظر البلهاء الذين يفخرون بأن الدم الهندي يجري في عروقهم...

في هذه اللحظة دخل خوسيه لوبيز يرافقه رجلان.

ـ أود، يا عزيزي تيسيانو، أن أقدم لك السنيور خوسيه أوغوستو، السكرتير الأول لسفارتنا في باريس. هوذا بيدرو تيسيانو.

ـ تشرفنا...

ـ كنت أعرفك بالاسم... لقد تركت صيتاً طيباً في ريو...

ـ هذا لطف منك...

كان تيسيانو يكره التقديمات ويقول إن فيها أكبر قدر من النفاق.

ـ الدكتور ريجر، محام.

ـ بيدرو تيسيانو، صحافي على هامش الصحافة...

وتصافحوا.

كان بيدرو تيسيانو، آنذاك في الرابعة والستين من العمر. لقد اشتغل بالصحافة منذ زمان طويل، وبات في المرحلة الأخيرة من حياته يعمل على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هامش الصحافة حيث ذاع صيته.

إن حياته كلها تتلخص في إطلاق عبارات ظريفة وفي تحدي المألوف.

أجل، هناك غاية. الغاية هي الموت...

لقد تجمعوا حول بيدرو تيسيانو لأن فكره سحرهم. فاكتسبوا قوة وجسارة وباتوا يجرؤون على قول كل الحقائق. صحيح أنهم كانوا يختلفون بعضهم عن بعض، إلا أن عناصر تجانس كبيرة كانت تجمع بينهم.

إن ريكاردو براس ولد في بياو، وهاجر وهو في سن المراهقة إلى باهيا سعياً وراء الحظ. وقد نجح في دخول المدرسة الزراعية ولكن سرعان ما غادرها بسبب الحاجة إلى المال. وأخيراً استطاع الحصول على وظيفة صغيرة في أحد المكاتب وراح يدرس في كلية الحقوق. كان ينظم الشعر وقد نشر مجموعة شعرية. وبما أن أشعاره لاقت نجاحاً فقد أخذ يكرهها. وبما أنه كان محروماً من العطف، فقد كان يتعبد للعاطفة. كان به عطش كبير إلى الحب.

فهو حين يفكر في غاية الحياة يتخيل دائماً فتاة ذات عينين كبيرتين حزينتين هي نموذج الزوجة المثالية.

أما غوميز، مدير "باهيا نوفا"(*) كما تقول بطاقات الزيارة التي لا تفارقه، فكان ذا ذكاء حاد مقرون بأمية كاملة.

لقد سبق له أن جرب نحو خمسين مهنة، من خادم الحانوت إلى محصل

(*) اسم صحيفة تصدر في باهيا.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكمبيالات الميؤوس من تحصيلها. وفي آخر الأمر قرر أن يصير صحافياً، مما اقتضى أن يوغل في أعماق الـ"سرتون"(*) بحثاً عن كولونيلات أو رؤساء بلديات يعطونه أخباراً عن مدينتهم وصوراً شمسية ودراهم.

وصدرت المجلة. والشيء الذي كان يعتبر حتى حينه مستحيلاً في باهيا هو أنها بلغت العدد الخامس والعشرين (لم يصدر منها في الواقع إلا أربعة عشر) فكان غوميز، المقتنع بموقعه الجديد كصحافي، لا ينفصل أبداً عن سيكاره وعن محفظته التي كان يتظاهر بإيلائها أهمية تاريخية.

وكان ريكاردو يردد:

– أنت، يا غوميز، شخص سافل، وغد، ولكنك تنجح. إن روحك روح نصّاب. لا أخلاق البتة...

ويحتج غوميز وقد احمر وجهه.

ويتدخل تيسيانو:

– حكاية الأخلاق هذه حماقة. فالرجل الموهوب لا أخلاق له. وأنت يا غوميز شخص موهوب. هذا هو المهم. ليس عند الإنسان إلا عيب واحد لا يغتفر: الحماقة.

ابتسم غوميز بادي السعادة. وحينما يدور النقاش حول عدم الرضى، وغاية الحياة، تراه يتقوقع على كرسيه ويستعرض من خلال دخان سيكاره

(*) منطقة في داخل الولايات الشمالية الشرقية في البرازيل تعاني من الجفاف غالباً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيتاً جميلاً، وسيارات، ونساء، وكولونيلات، كثيراً من الكولونيلات وفي أيديهم رزم من الأوراق النقدية...

الرجل الأقل بروزاً بينهم كان يدعى جيرونيمو سواريس. إنه خلاسي فاتح اللون، طيب، ساذج، لا طموحات عنده، فهو إنسان عادي كان يحلو لتيسيانو أن يقولبه على صورته ومثاله.

كان يحلو لتيسيانو أن يتصرف بقساوة بعض الأحيان. فقبل أن يتعرف جيرونيمو على تيسيانو كان يحيا حياة هادئة، دون مشاكل، حياة هانئة كحياة أولئك الذين لا يفكرون ولا يبذلون جهداً لأجل التفكير. غير أن تيسيانو (الذي كان يتخيله كإله) سرق منه صفاءه. فصار جيرونيمو إنساناً غير راضٍ، مشحوناً بالشكوك، عاجزاً عن الاهتداء إلى طريقه في الحياة. وجعله تيسيانو يفقد فكرة الله وكان يهزأ بوطنيته. وفي آخر الأمر أمسى جيرونيمو ألعوبة في يده. وهكذا كان تيسيانو في ريو دي جانيرو معروفاً بقصائده الهجائية وفكره اللاذع. وهو قد احتل مكانة هامة في صحف المدينة نظراً إلى كونه ناقداً ساخراً من الطراز الرفيع.

لقد عهد إليه في أحد الأيام بمركز جيد في الريف.

في باهيا، التي كانت قد لُقبت فيما مضى بأثينا البرازيلية، كانت تزدهر في هذه الحقبة أكمل أشكال الحماقة.

عقد بيدرو تيسيانو العزم على أن يشن، في هذه الأرض الطيبة، حملة من أجل رفع راية الذكاء. فابتدأ بمهاجمة الخلاسية. وكان قوي الشكيمة، فصار بعبع الطلبة الطامحين بأن يصبحوا شعراء والدجالين الذين يوقعون المقالات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرئيسية في صحف باهيا.

(ذلك أن جميع الناس في باهيا، مدينة جميع القديسين وخصوصاً السيد بونفيم، هم مثقفون. فحامل البكالوريا هو حتماً كاتب، والطبيب الذي يكتب مقالاً عن داء الزهري يُخلع عليه في الحال لقب شاعر، ويعطي القضاة آراء أدبية حصيفة لا يجرؤ أحد على مناقشتها).

***

كان بيدرو تيسيانو يقول إن جميع الحمقى في باهيا ينظمون الشعر، وإن أكثر سادة المدينة رزانة، إذا كان لا ينشر أشعاراً رديئة في مجلات أنيقة، فهو بالتأكيد يحتفظ في عمق جواريره بأبيات خربشها في لحظة ما.

وأخذ بيدرو تيسيانو يجلب لنفسه الكراهية. وشيئاً فشيئاً انغلقت الصحافة في وجهه. وقد كتب مرة مقالة عنيفة ضد سياسي مرموق، فعزل من وظيفته. و لم يعد بإمكانه أن يعود إلى ريو ، فظل يعيش في باهيا، فقيراً، حيث كوفيء على حياته العظيمة بكراهية جميع خلاسيي باهيا له.

على أنه ظل محاطاً ببضعة أصدقاء، وعددهم قليل، وربما كان هؤلاء آخر أصدقائه والأصدقاء الحقيقيين الوحيدين الذين حظى بهم في حياته.

كان سبب انشراحه الكبير هو علمه بأن الآخرين يخافونه. فأعداؤه كانوا لا يتجاسرون على مهاجمته وكانوا مرغمين على الاعتراف بأن فكر بيدرو تيسيانو ما زال في أوج شبابه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وغالباً ما كان الناس يلاحظون المفارقة في اسمه: بيدرو تيسيانو. فهو اسم برجوازي جداً واسم فنان.

وفي تفسير ذلك كان يقول إن والده كان تاجراً قضى كل حياته في السعي الدؤوب إلى جمع ثروة يتركها له. وحينما ظن الجميع أنه يملك ثروة طائلة أفلس، ومات من الغم. وهو الذي تمسك بتسمية ابنه بيدرو. أما والدته، التي كانت حساسة جداً (كانت تبعث إلى شقيقاتها برسائل مكتوبة شعراً وكان في غرفتها رسم لفكتور هيجو(*)) فقد رأت أن اسم بيدرو قبيح، وللتخفيف من ذلك أضافت إليه تيسيانو، وسُمي في المعمودية بيدرو تيسيانو تافاريس. وعندما كبر حل تيسيانو محل تافاريس. كان والده يؤنبه على ميله إلى الصحافة، فهو كان يمقت أهل القلم، ويكرر القول بأن الشعر لا يطعم خبزاً، فما كان من تيسيانو، الذي كانت لديه طموحات أدبية في تلك الحقبة، إلا أن حذف كلمة تافاريس من اسمه قائلاً إن عائلته لا يحق لها أن تستفيد من صيته العظيم. وهكذا صار بيدرو تيسيانو فقط. وهو الآن يظن أن والده كان على حق، فالشعر لا يطعم خبزاً... لا الشعر ولا النثر...

لقد صارت هذه الصداقة العزاء الكبير لحيواتهم. فهي تجعلهم يشعرون بأنهم متساندون. فكانوا يتكاتفون ويبحثون معاً عن غاية وجودهم. وبعد أن تعلموا، مع بيدرو تيسيانو، جميع المواقف التشككية، شرعوا يناضلون ضد الشك. فهو يبغون اكتشاف الغاية. اجل - كانوا يقولون - إن للحياة

(*) فكتور هوغو (١٨٠٢ - ١٨٨٥) شاعر وكاتب فرنسي، من أعلام الحركة الرومنطقية من أبرز أعماله "البؤساء".

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غاية...

فيقول تيسيانو بلهجة قاطعة:

يتلاعب بهذه الروح مقولباً إياها على هواه، وكان يبتسم حينما يفكر بأن سعادة أو تعاسة هذا الإنسان هي في يده.

على أن أكثر هؤلاء الأشخاص غرابة كان خوسيه لوبيز، فهو رغم حصوله على شهادته الجامعية منذ فترة قصيرة جداً، كان يعتبر موهوباً كبيراً. وهو، خلافاً لريكاردو براس، لم يكن يعنى بأدب الظرافة والمفارقات، بل كان غارقاً تماماً في روح الجديّة التي يتحلّى بها الجيل الناشىء.

وكانت له نقاشات طويلة مع ريكاردو الذي يجزم بأن الثقافة تعود بالضرر، وأنه ليس من واجب أحد أن يقرأ كي يتثقف، ويزعم:

ـ أنا أقرأ على سبيل المتعة. فأنا أطالع الآن كتاباً لأناطول فرانس(*). هذا الكتاب يعجبني، وإذا كان لي غداً أن اختار بين كتابين، واحد لأناطول وآخر لأونامونو(**) ، فسأقرأ لأناطول لأني أعلم أنني سأستمتع به.

ـ أما أنا فأقرأ أونامونو، رد خوسيه لوبيز.

ـ وأنت يا تيسيانو؟

(*) أناطول فرانس (١٨٤٤ ـ ١٩٢٤)، روائي وناقد فرنسي حائز على جائزة نوبل عام ١٩٢١.

(**) ميغيل دي أونامونو: (١٨٦٤ ـ ١٩٣٦) شاعر وفيلسوف وروائي أسباني.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ أنا لا أطالع إلاّ الكتب الفكاهية... فهذا النوع هو الأكثر مأساوية في الأدب. كذلك أنا لا أذهب إلى السينما إلاّ متى كانت تعرض أفلاماً لشارلو(*) . إنها الأفلام الوحيدة التي تؤثر بي.

كان خوسيه لوبيز يمتعض أحياناً من مزحات أصدقائه. وكان يعتبر أنه يجب محاربة أدب العبارات الفارغة وتأليه نزعة التشكك، وأنه ينبغي القيام بعمل جدي، تحقيق شيء ما، إيجاد طريق في الحياة.

ـ نحن بحاجة إلى فلسفة... يقول لغوميز وهما يتمشيان في شوارع المدينة.

فيقول ريكاردو براس هازئاً، وكان المرض قد جعله مادياً:

ـ لماذا لا تنتسب إلى التومانية(**) ؟

ـ من يدري؟ أنا إنسان ملحد متصوف... إنسان منقسم على ذاته، ولكني إنسان غير راضٍ.

كان خوسيه لوبيز يشعر بأنه لن يحقق شيئاً. وكان، وهو العاطفي جداً، لا يستطيع أن ينفصل عن أصدقائه الذين صاروا عنده العائلة التي كان محروماً من وجودها. إنه لم يحصل بعد على الحرية التي يستلزمها طلب السعادة.

(*) المقصود شارلي شابلن.

(**) نظرية القديس توما الأكويني اللاهوتية والفلسفية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ أنت مثال الزوج الصالح، كان يقول له ريكاردو.

ـ ربما. لكنني لن أتزوج. وإذا تزوجت فأنا واثق من أن زوجتي ستخونني ـ فأنا وُلدت لأكون زوجاً مخدوعاً...

وانزمّت شفتاه في ابتسامة مرة.

ارتبط باولو ريجر بالمجموعة وراح يشارك في مماحكاتهم كل ليلة. وكان يصفه تيسيانو بـ "الجريدة الناطقة". وكان هو يهتم بالحركات الأدبية في المدينة. وقد جعل من أعداء تيسيانو أعداء له ومن أصدقائه أصدقاء له.

أما خوسيه أوغوستو فقد انقطع عن ارتياد البار. ولم يتوقف عن هجاء تيسيانو طيلة الأيام التي قضاها في باهيا. وسبب ذلك بسيط. فقد كان الجميع يثرثرون بحرارة حينما أخذ خوسيه أوغوستو، حسب عادته، يشيد بروي باربوزا. فقال تيسيانو مبتسماً:

ـ لا يوجد في باهيا سوى قديسين اثنين: سيّد بونفيم وروي باربوزا...

فعانقه خوسيه أوغوستو بحماس. لكن تيسيانو، الشرير، أضاف:

ـ أما أنا فلست معجباً بأي منهما ولا أقدس أياً منهما...

ـ حسن! حسن جداً! صاح باولو ريجر وهو يضحك لرؤية سحنة خوسيه أوغوستو المشدوهة.

أما الدبلوماسي فلم يعد يظهر. على أي حال لم يعد يفكر فيه أحد.

***

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كل شيء في باهيا كان يدهش باولو ريجر. فمدينة توميه دي سوزا تترك لديه انطباعاً بأنها واحدة من تلك المدن المتقهقرة، حيث كل شيء يموت ببطء، في جو من الكآبة الغامرة التي ترافق انطفاء الحياة.

لقد وصل إلى باهيا في يوم كانت فيه مسرح هياج كبير. وعلى ظهر الباخرة التي كانت تقله كان بضعة أعضاء من المعارضة ينتقلون لأجل بث الدعاية الانتخابية وإلقاء خطب في الشمال. وعندما ركب السيارة بصحبة جولي، كان الخطباء قد توجهوا إلى المدينة، وكانت الجماهير الشعبية تسير في أثرهم. ذلك أنه كان يسير على رأس الموكب نائب يُعتبر أعظم خطيب في البلاد، والبرازيلي يعطي حياته لقاء بضع زهرات من العبارات الطنانة.

واضطرت السيارة التي يستقلها باولو أن تختلط بالموكب. كان يستحيل شق الجموع للخروج. لم ينزعج باولو، بل وجد في ذلك متعة. فهذا شيء جديد عليه، وكان يستمتع بالحماسة الشعبية. كان الموكب يتوقف كل خمس دقائق. كان هناك أشخاص متحمسون يلقون كلمات تحرك العواطف. كان هؤلاء يقولون إنه "يجب وضع أوراق بيضاء في الصندوقة السوداء". وكاد باولو ريجر أن يصاب بجراح بينما كان يضحك لهذه العبارة. توقف الموكب للمرة السادسة على قمة "لاديرا الجبل" حيث كان رجل سكران يلقي خطاباً وهو يحاول الحفاظ على توازنه. (أية تضحية لا يقدمها الإنسان لأجل الوطن؟).

كان الرجل يصرخ:

ـ أنا الناطق بلسان سفلة الشوارع! الناطق بلسان الصعاليك، والعميان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المتسولين، والكسحاء (سانده أحدهم كي لا يسقط)، ووحل المجاري، والمومسات... بلساني، أيها المواطنون الأكارم، تحييكم المواخير، والمستشفيات، وعفونة الأزقة...

ورد أعظم خطيب في البلاد بلهجة متأثرة على تحية العميان والكسحاء وبنات الهوى وقذارة الشوارع...

ثم تحرك الموكب وسط الزغاريد والصيحات الساخرة.

فقال باولو ريجر لجولي:

ـ هذه بلاد الكرنفال، يا صاحبتي!

وفجأة أحس بأنه غريب، غريب جداً عن شعبه، وراح يفكر بأنه قد يغرق في البرازيل.

***

بعد أن ترك جولي في الفندق (ذلك أن جولي لحقت به، في حالة من الهيام وجنون اللذة والأحاسيس جعلته يفقد صوابه) مضى عائداً إلى بيته. كانت والدته تقيم في غارسيا، وتسكن دارة ريفية كبيرة. لم يكن ينتظر مجيئه أحد، لأنه كان ينوي أن يحضر بصورة مفاجئة. طرق الباب ففتحت له خادمة فتية. فراح يتأملها من رأسها حتى أخمص قدميها مبتسماً. كان قلبه يرقص في صدره؛ فهو يزمع أن يشاهد أمه التي يحبها كثيراً بعد غياب دام سبع سنوات. لقد بدا متأثراً وهو يتفرس في وجه الخادمة الصغيرة، مسمّراً في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مكانه. لقد كان الابن الضال العائد إلى بيت أبيه. ومن يدري إن كان لن يبقى ليعيش فيه بعد الآن؟ إن باريس لم تدلّه قط على معنى الحياة، وإنما هي أشبعت شهوته الجسدية فقط. وقد خامره شك بأن تكون الغريزة السبب الوحيد للوجود. وأمام الباب، وهو يبتسم للخادمة، راح يقول في نفسه إنه ربما سيجد السعادة في صفاء هذا البيت. وخطرت بباله جولي. جولي التي تبدو له كأنها رباط يشده إلى باريس... وعزم على هجرها.

ـ ماذا تريد يا سيدي؟

وأفاق باولو ريجر.

ـ هل أرملة السنيور غودوفريدو ريجر تسكن هنا؟

ـ أجل يا سيدي.

أزاح الخادمة من أمامه، ودخل، وجال في البيت كله والفتاة وراءه مندهشة. كانت أمه في فناء الدار تلقي الحب لدجاجة صفراء. (خطر ببال باولو أنه سيمارس تربية الدجاج). وتطلعت أمه إليه، فعرفته:

ـ ولدي!

ـ أماه!

عند العشية، بعدما حكى تفاصيل الحياة في باريس لأمه ولبضع صديقات جئن لزيارتها، أخذ يشعر بالشوق إلى جولي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- ٤ -

الجنس ينتصر ويجره نحو جولي. الجنس، وحده الجنس. وذلك بالضبط لأن جولي لا تعرف أن تكون سوى غريزة. إنها لا تعرف أي شيء غير ذلك، ولا تهتم بأي شيء غير ذلك. فكان يكفي أن يشبع جسدها...

إن باولو ريجر يعرف تماماً ما يجري له. ومع ذلك فهو لم يبتعد عن جولي. بل أكثر من ذلك، إنه كان يراها على حق. وهي إذا كانت تشتهيه فمعنى ذلك أنها تحبه. الحب لا يتعدى إشباع الشهوات... إنه مسألة فيزيولوجية، لا أكثر ولا أقل. إنه ضرورة طبيعية. أما حكاية العواطف فهي من اختراع الناس الذين يسعون إلى إخفاء الحب وجعله بذلك أكثر إثارة.

بيد أن أفكاراً غريبة كانت تخطر بباله أحياناً. وفي تلك اللحظات كان يلمح حقائق في أقوال ريكاردو براس. فلربما كان في الحب شيء آخر غير لذة الجسد. الحب ليس فقط أن يستلقي رجل وامرأة في سرير، ويلتصق الجسدان، والرأسان، وتختلط الأيدي والأحاسيس. إن ترقيع الجوارب، ومداعبة قط أسود (أرستقراطي جداً لا ينام إلاّ على وسادات ولا يأكل إلاّ اللوبياء السوداء) وقول أشياء لطيفة، والغيرة من الابتسامات التي ترد على كلمات ظريفة صادرة عن العابرين، والجدال حول اسم أول مولود، هي أيضاً الحب، كما كان يؤكد ريكاردو بصوت صارخ ووجهه محتقن ونظاراته تتأرجح على طرف أنفه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان يضيف قائلاً بحدّة:

- على كل حال، لا! إن هذا الحب هو الحب الحقيقي، الحب الوحيد... السعادة... أما إشباع شهوة الجسد فلا يعطي السعادة لأحد.

- خزعبلات! قالها ريجر الذي يرفض مجاراة صديقه كي لا يضطر إلى الشك بحب جولي. إذن، يولد الإنسان لأجل هذا الحب... هذه هي غاية حياتنا؟

- بالضبط. إن معنى الحياة، غاية الحياة، هي في الحب. ولكن في ذاك الحب الذي أتكلّم عنه: الحب - العاطفة.

لم تبدر من خوسيه لوبيز، وهو الحَكَم في جميع هذه المسائل، أية إشارة بالموافقة أو بالمعارضة. الحل الوسط... هو أن الحب لا بد أن يكون مزيجاً من القلب والجنس. ولم يوافق على القول بأن الحب هو غاية الحياة...

- وما هي إذن؟ صاح ريكاردو بصوت مختنق، مدافعاً عن وجهة نظره.

- لست أدري.

- لعله الدين.. الله... قالها جيرونيمو مجازفاً.

فقال تيسيانو، غاضباً مما اعتبره حماقة:

- الدين، وماذا بعد يا بني؟ إذن الغاية عندك، غاية الإنسان الذكي، هي الغاية ذاتها التي لجميع البلهاء؟

- لكن التومانية... قالها جيرونيمو بإصرار.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ التومانية هي تجديد شباب فورونوفيٌّ جداً للكثلكة. وفي آخر الأمر سيتلاقى الكتّاب التومانيون والخوارنة المتعلمون في صراع مستميت مع المتزمتين.

أحس جيرونيمو بالهزيمة فتقوقع على كرسيه وراح يحسو قهوته محاولاً إخفاء وجهه. فهبّ خوسيه لوبيز إلى نجدة جيرونيمو:

ـ من يدريّ؟ ربما...

ـ الأديان هي نفايات خرافات وأكاذيب...

ـ السعادة ليست بنت الحقيقة. على الإنسان أن يصل إلى السعادة من أقصر طريق. والدين يمكن أن يجلب السلام، والفرح...

وأخذ بيدرو تيسيانو يصوغ عبارات جوفاء:

ـ السعادة هي في عدم السعادة بالذات، في عدم الرضى. وعدم الرضى هذا، هذا الشك، هذه النزعة التشككية، هي التي ينبغي أن تكون فلسفة الإنسان الموهوب.

هكذا يلجأ تيسيانو إلى السفسطة دائماً، إلى النفي عندما يؤكد الآخر والتأكيد عندما ينفي الآخر. فالغاية هي أن لا يكون هناك غايات.

ـ هذا كله عتيق جداً يا تيسيانو. وهو لم يعد ينطلي على أحد اليوم... المطلوب اليوم أشياء جدية، عمل مفيد.

ـ وهل هذا الجدي جديد؟ فقد سبق لسقراط وأراد أن يكون جدياً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأرسطو والقديس توما كانا جدّيين. هؤلاء أناس يفوقون حد التصور... إن غاية الفنان هي العيش، لا أكثر... العيش لأجل العيش، بالضرورة، لأننا ولدنا... وراح خوسيه لوبيز يحك دماغه... يحكه كثيراً. ألا يمكن أن يكون تيسيانو على حق؟ كان يحاول التخلص من تأثير الآخر، فتمتم:

ـ هذه مزحات!

في الحقيقة، كان جيرونيمو سواريس يتأمل بيدرو تيسيانو مبهوراً، وكان هذا الأخير وكأنه شيطان، يشوبر، وقد فرّت شعرات رأسه القليلة البيضاء من سجن قبعته وكأنّها تزمع أن تطير، فكأنها شعرات شاعر...

***

بينما كان ريجر عائداً إلى بيته خطرت بباله أول مشاجرة بينه وبين جولي. كان ذلك في كرنفال ريو دي جانيرو. فقد خرج في ذلك اليوم وظل يطوف في الشوارع حتى الفجر. وحينما دخل البيت لم يجدها... وتذكّر كيف راح يركض (يركض؟ لا، كان يدور على نفسه...)، كانت فظيعة تلك الليلة. كان السرير فارغاً، والشراشف البيضاء كانت تعطيه انطباعاً بأنه فراش موت...

توقف الباص، وتوقفت أفكار باولو أيضاً. وسرح نظره في صف البيوت، وفي نخيل كامبو غراندي. كان كل شيء ينضح بكآبة المساء. إلى جانبه، على مقعد السيارة، كانت تجلس فتاة نحيلة ذات عينين كبيرتين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

زائغتين، تقلب صفحات كتاب شعر. حاول أن يقرأ عنوان الكتاب فـإذا بـه "آس بريمافيراس" للشاعر كازيميرو دي أبرو. فابتسم قائلاً في نفسه: بالطبـع هذه الفتاة تميل إلى الرومنطيقية... لا بد أن يكون لها عاشـق ينظـم الشـعر. ولربما كان لـها علاقة ما مع ريكاردو براس. وشـاء أن يسألـها عـن ذلـك، وفتح فمه، لكن سرعان ما أطبقـه ضاغطاً بيـده علـى شـفتيه. رويـداً، إنهـا لفكرة تافهة! بديهي أن هذه الفتـاة لا تعـرف حتـى ريكـاردو. إنهـا تعاشـر مستخدماً في التجارة.

واستأنف الباص سيره. واستعاد ريجر حبل أفكاره. في تلك الليلة لم تعـد جولي إلاّ عند الصباح. في بادىء الأمر لم يقل لـها حتى كلمة واحـدة. ومـا لبثت أن بادرته هي بالسؤال عـن السبب. فاستشـاط غيظـاً ـ فلتذهـب إلى الجحيم! لقد أمضت الليل تلهو مع رجال آخريـن وبالتـأكيد ضـاجعت أول واحد وقع تحت يدها، وها هي الآن تسـأله عـن سـبب زعلـه. فاتذهـب إلى الجحيم!... وسألـها بلهجة تهكمية وشفتاه مشدودتان إلى بعضهما:

ـ كيف هو هذا الرجل؟ أهو أسود أم خلاسي؟ قوي؟

وشرحت له ما جرى. فلا داعي للغيرة. وأن تصرفه أحمق... في الحقيقـة إنهـا لم تضاجـع أي رجـل. إنهـا لم تخنـه. وكـل مـا في الأمـر أنهـا رقصـت وصرّخت وعبثت... وهذا لا يسمى خيانة. فلماذا يزعل إذن...

هو أيضاً كان لا يعلم لماذا. وإذا كان الحب لا يتعدى اللذة الجسدية، لا يتعدى وصل الجنسين، فلا يكـون لديـه أي سـبب للتذمـر. إنهـا لم تضـاجع رجلاً آخر. إنه يصدقها. إنها لا تكذب عليه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في الباص، أخذ باولو يتقبل نظريات ريكاردو. فهو يغار من العبارات والابتسامات التي كانت جولي توزعها على أصحابها العابرين. الحب لا يحدّه الامتلاك... ولكن إذا كان الأمر هكذا فهي لا تحبه...

وتوقف الباص. ونزلت منه سيدة سمينة. لاحظ باولو أن الباص قد تجاوز بيته. فنزل هو أيضاً تاركاً أفكاره هناك. عند باب الدار كانت أمه، مشرقة الأسارير، تنتظره لتخبره عن ولادة صيصان الـ "ريكاردينا"، الدجاجة المسنة العزيزة على قلب أهل الدار جميعاً والتي "ستموت بسبب كبر سنها".

كان باولو ريجر يحب سماع أمه تتحدث عن أبيه الذي لم يعرفه إلاّ قليلاً.

إن غودوفريدو هو في نظره مثال الرجل الذي وجد في العمل السعادة. الرجل الذي لم يكن لديه مشاكل شخصية تتطلب حلولاً. الرجل الذي كان له غاية.

لقد كان معجباً به، وكان يحسده.

على أنه بينما كان، عصر أحد الأيام، يفتش في جوارير لم يفتحها أحد منذ سنين، عثر على دفتر كان لأبيه. لم يكن هذا الدفتر دفتر يوميات بكل معنى الكلمة وإنما مجموعة من الملاحظات وحسب...

وقرأ فيه:

"هل إن حياتي ستُختصر، أخيراً، في هذا: العمل، العمل؟... ألن أكون أبداً سوى ملاّك غني؟... أليس في الحياة شيء آخر غير العمل كل يوم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والراحة كل يوم في كنف العائلة؟...".

وغمغم ريجر:

ـ حتى والدي، حتى والدي.

***

كانت جولي متمددة في السرير تطالع رواية من تأليف ويلي(*)، وهي تدخن سيكارة من التبغ الأشقر. فجأة طرحت الكتاب جانباً: يا له من شربة زيت خروع. الساعة في معصمها كانت تشير إلى العاشرة مساءً، وباولو ريجر يوشك أن يصل. لقد فكرت فيه بشيء من الكراهية تقريباً. لهو لن يكاد يصل حتى تبتدىء المشاحنات اليومية. نوبات غيرة لا مبرر لها. فهو يريد أن يعرف كيف أمضت النهار، وماذا عملت، وإلى أين ذهبت...

لقد ارتكبت خطأً حينما ارتبطت به. كانت تظن أن ريجر إنسان بلا عواطف، يسخر مما يفعل، باريسي مرهف لا يطلب سوى المتعة. ولا شيء أكثر من ذلك. وبدلاً من رجل مرهف، بجرد مستمتع يتقن فنون اللذة، وجدت نفسها مع إنسان رومنطيقي متقد العاطفة. فكانت تقول ضاحكة:

ـ أنت برازيلي تماماً، يا حبي الصغير! رومنطيقي على شاكلة أبناء بلادك الذين تكثر الحديث عنهم. ليس فيك من الرجل الباريسي سوى القشرة...

(*) إليانور ويلي (١٨٨٥ ـ ١٩٢٨) شاعرة وروائية أميركية تمتاز بخيالها الساحر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت تردد مثلاً سمعته من زنجية غليظة على مدخل الفندق:

ـ من كان لا يعرفك فليشترك...

وصحت جولي مذعورة. لقد عاد باولو ريجر وراح يقبل شفتيها الممتلئتين ـ وبما أنها لم تفق تماماً فقد عضها.

ـ أوه! لقد عضضتني... لكم تأخرت في العودة! إنه منتصف الليل!

ـ آه، يا حبي! خبر سار... الاثنين سنرحل إلى المزرعة في جنوب الولاية.

نحن الاثنان فقط. سنكون هناك لوحدنا... في أكمل سعادة...

ـ الجمعة، السبت، الأحد، الاثنين... وهل هي جميلة تلك المزرعة؟ هل يوجد هناك نمور وأسود؟

ـ كلا يا حبيبتي (يضحك) ليس يوجد شيء من هذا، ولكن هناك أفاعي...

ـ لن أذهب. أنا أخاف من الأفاعي...

وبشق النفس أقنعها بأنها لن ترى الأفاعي ــ فهي تعيش في الأدغال، الأفاعي المسكينة!

ـ وإذا لدغتني واحدة منها... وإذا متّ؟

ابتهج ريجر لسماع هذا الكلام. أخيراً، إن جولي لم تكن مجرد جسد وحسب. بل إنها عواطف أيضاً. وهي تخشى الموت لأنها لا تريد أن تتركه وحيداً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وراح يقبلها كالمجنون.

ـ إذا متّ يا حبيبتي سأكون تعيساً، قانطاً...

ـ أنا التي ستكون قانطة... فلن أستطيع العودة إلى فرنسا...

فرفع باولو رأسه، حانقاً، والتقط قبعته وخرج مسرعاً من الغرفة وهو يتمتم:

ـ الكلبة... إنها لا تتبرأ مما كانت...

أما جولي فكانت تقول في نفسها:

ـ لقد جُن الرجل؛ لا شك في ذلك...

وبرطمت، واستدارت إلى الجهة الأخرى، ونامت.

ـ ٥ ـ

كان مركب الشركة الباهيانية يتراقص كالبهلوان في البحر الواسع.

وكان أصحاب مزارع الكاكاو يتحدثون عن الأزمة، والطلبة الذاهبون لقضاء العطلة يتناقشون حول الامتحانات ويرسمون برامج لمناسبة عيد القديس يوحنا.

كانت جولي متمددة على بنك ورأسها على ركبتي ريجر الذي كانت تروي له كيف أمضت، في الصين، ثلاثين ليلة على زورق صيني يجري في النهر، وكانت وحدها بين ستة رجال، ستة صينيين مسوخ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان باولو يشعر بغيرة فظيعة من ماضي جولي. فهو يكره أولئك الصينيين... كانوا ستة. وهي وحدها. بين ستة صينيين. إنه لا يريد أن يسمع أكثر من ذلك.

فنبهته جولي بلهجة جادة:

ـ باولو، يا حبيبي، أنت تفقد عقلك...

***

وصلا عند الساعة الواحدة، باكراً جداً، وفي الوقت المناسب لركوب القطار. ثم أخذت المناظر الطبيعية تتوالى: أشجار الكاكاو المثقلة بالثمار، الثمار الكثيرة الصفراء. المملوءة بالعصير.

كان ريجر يعشق مهنته الجديدة كصاحب مزرعة. وكان يشرح لجولي كيف تربى شجرة الكاكاو. كان يحدثها عن مزرعته. ففي أيام والده، وقبل أن يرحل إلى أوروبا (انقضت سنون كثيرة على ذلك...) رافق والده مرة إلى المزرعة. وعادت إلى مخيلته صورة الوكيل ألجيميرو الضخم الجثة، الخلاسي الشديد البأس، الذي يقال إنه قتل تسعة أشخاص بوصفه حارس العجوز غودوفريدو الشخصي.

وكم من مرة نزل برفقته إلى البلدة المجاورة لحضور فيلم سينمائي. بعد ذلك كانا يتوقفان في البيوت البائسة، بيوت المومسات المسنّات، حثالة المدن اللواتي ينتهي بهن المطاف إلى هذه الزاوية من العالم، حيث يقاتلن ببسالة، في سبيل البقاء.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان ألجيميرو جريئاً، ذا سمعة وطيدة، وكان دائماً يحظى باستقبال حار. ويتذكر ريجر جيداً أنه في إحدى المرات، لدى دخولهما إلى نزل خوانا، وهي فتاة خلاسية كانت قد تركت البيت منذ فترة قصيرة وكان ألجيميرو قد انسجم معها، عرف هذا الأخير أن في غرفتها رجلاً آخر. فأمسك بالرجل وألقى به من النافذة (أي خوف انتاب باولو!) ثم انهال عليها بالضرب.

ـ لماذا ضربتها يا ألجيميرو؟

ـ النساء، هكذا تجب معاملتهن، يا كولونيلي الصغير. النساء فصيلة حقيرة لا قيمة لها...

كانت جولي تصغي باهتمام: يا لهؤلاء الرجال...

ـ وهل يعيش حتى الآن في مزرعتك، هذا الرفيق؟

ـ أجل. وهو لا يزال وكيل المزرعة. إلاّ أنه شاخ...

وسمع صرير عجلات القطار على السكة. وتوقف. نزل ريجر مادّاً يده إلى جولي. ورأى ألجيميرو يتنقل من جهة إلى أخرى كأنه يبحث عن شخص.

ـ هيه! ألجيميرو!

ـ ها هو المعلم! لكم كبر! بالأمس كان صبياً... من يصدق... يبدو أن الناس يكبرون سريعاً في الأوروبات.

ـ قل لي يا ألجيميرو، هل المطايا هنا؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ لقد أتينا بها يا معلّم، خطر في بالي أن يكون هناك شخص إضافي، فجئت بمطيتين... يمكنك أن تجلب صديقاً...

ـ جلبت صديقة...

وقام بالتعريف:

ـ الآنسة جولي.

ـ ألجيميرو، وكيل المزرعة.

وتحرك ألجيميرو بنشاط ووضع على ظهر بغل جولي سرجاً نسائياً.

واعتلى كل واحد مطيته، وسار وراءهم زنجي عملاق بارز العضلات.

وراء السرج كانت هناك بندقية تنام نوماً بريئاً...

وصاح ألجيميرو:

ـ سر في المقدمة يا هونوريو، وأنا أسير في المؤخرة مع المعلم.

استطاعت جولي، طيلة الرحلة كلها، أن تمتع نظرها بعضلات ظهر هونوريو، الذي كان يسير غير مبالٍ وهو يمضغ قطعة من التبغ الأسود بين أسنانه البيضاء.

كانت البهائم قد اعتادت على اجتياز هذه الطريق كل يوم لنقل أكياس الكاكاو، فتوقفت بالضبط أمام الدار المطلية بالأبيض. كان هناك دجاجات وديكة حبشية تبحث في الأرض عن طعامها باطمئنان.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ساعد ألجيميرو باولو على النزول عن ظهر مطيته. وحمل هونوريو جولي بين ذراعيه وأنزلها إلى الأرض. وفي هذه الأثناء أدنت جولي رأسها الأشقر من خرسانة صدر العامل الزراعي، فشمت رائحة ذكرية سليمة.

في تلك الليلة، حينما طوقها ريجر بذراعيه الضعيفين، كذراعي رجل في منتهى التمدن، خطرت في بالها بلذة كبيرة صورة عضلات هونوريو وقامته العملاقة. فوجد ريجر نكهة جديدة في قبلاتها ومزيداً من الحمية في ضماتها.

وأغفى سعيداً.

***

لقد هام باولو ريجر بامرأة فرنسية، وبما أنها لا تحبه بل تضاجعه فقط، يريد أن يقنع نفسه بأن الحب ليس سوى اللذة الجسدية... مسكين! مسكين! إنه لا يريد أن يواجه خيبة.

فقال خوسيه لوبيز جازماً:

ـ الخيبات ضرورية.

ـ أنت تتكلم من علياء صفائك.

ـ إن صفائي هذا يا براس هو وليد الخيبات. فلقد صرت صافياً لأنني لم أعد أنتظر أي شيء طيب من الحياة. أي شيء، وطالما أنه لم تحصل أشياء أسوأ مما حصل حتى الآن، فإني لن أتذمر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ لكن هذا ليس بالصفاء.

ـ وما عساه يكون إذن؟ إنه الصفاء مع تزوير للسعادة.

ـ وهذه هي غايتنا نحن؟

ـ ربما، إسمع، أعتقد أنه نعم. أن تقنع بما تعطيك الحياة. أن تعيش كما تعيش. أن تعيش.

وقال تيسيانو مؤكداً:

ـ بالضبط. أن تعيش لكي تعيش.

ـ لكن خوسيه لوبيز يناقض نفسه. فمنذ أيام كان يناقشك يا تيسيانو قائلاً إنه حتى الدين يمكن أن يأتي بالسعادة... وها هو الآن ينكر وجودها...

ـ ليس الأمر هكذا تماماً. إن السعادة لا وجود لها في نظر بعض الناس. فأنت الذي تأمل أن تجدها في الحب، مثلاً، سيخيب أملك. السعادة ليست مصنوعة لأجلك. أما جيرونيمو فهو حالة أخرى. أعطِه زوجة صالحة وقليلاً من الدين، وعزاء ما وراء الطبيعة، تَجِدْهُ سعيداً.

ـ حسناً. هذا فيما خص جيرونيمو. وفيما خصك أنت؟ إن لك موهبة إبليس وتقول إن باستطاعتك الوصول إلى أن تصير كاثوليكياً.

ـ أنا، في الحقيقة، اشعر بعض الأحيان بضرورة وجود تعزية. فمهما بلغت محبتك للأصدقاء لن تكون صادقاً تماماً. نحن بحاجة إلى رب رحيم جداً يستمع إلينا ويعزينا. لكنها مسألة عاطفية. إن العقل لم يقدني إلى ا لله بعد،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولن يقودني إليه أبداً. أما العاطفة، فسأغلبها.

ـ وهذا الرجل بالذات يقول عن نفسه إنه يتمتع بالصفاء!

توقف الحديث فجأة. فقد دخل غوميز مسرعاً وجيرونيمو في أثره، وجلس لاهثاً:

ـ بيرة، أيتها الخادمة!

ـ ماذا؟ قالها بيدرو تيسيانو ـ أنت تطلب بيرة؟ أتسمعون، إن غوميز يقدم البيرة. لا بد أن يكون قد حدث شيء خطير جداً. خطير للغاية.

فقال غوميز:

ـ لقد أخذتني الحميا!

فقاطعه تيسيانو قائلاً:

ـ الحميا دليل على الرداءة.

ـ لا تقاطعه يا تيسيانو!

ـ لقد خطرت ببالي فكرة، فكرة عظيمة. قالها غوميز بلهجة من أصابته سكتة دماغية.

ـ فكرة؟ خطرت ببالي فكرة يا غوميز؟ قالها ريكاردو بصوت هادر ـ احتفظ بفكرتك لك، يا صاح، فهي كنز.

ـ أنت، إذهب إلى الجحيم! أيها الحقير!

إذا كان الأمر لا يعني له شيئاً، فليرحل... تباً له! أما غوميز فهو يجهد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لأجل ما فيه خير الجميع، وقد جاء براس يتغالظ عليه...

وتدخل خوسيه لوبيز:

ـ لا تتصرفوا كالمعتوهين! أنا متشوق لمعرفة ما يدور في خلد غوميز... تكلم...

جاءت الخادمة بالبيرة.

وطلب غوميز أن تأتيه بعلبة سيكار؛ "ذهب كوبا"... لا "سوير ديك رقم ٢".

وأخذت الدهشة من تيسيانو كل مأخذ.

بعد أن استعاد غوميز صفاءه، أطلق الفكرة مصحوبة بضربة من قبضته على الطاولة:

ـ جريدة يومية! سيكون لنا جريدة يومية!

ـ ماذا؟

ـ جريدة يومية؟

ـ ماذا يقول غوميز؟

ـ أجل جريدة يومية... الـ "إيستادو دى باهيا"...

كانوا يطمحون كثيراً إلى أن يكون لهم جريدة. فهذا يمكنهم من السيطرة على باهيا، فلا يعود باستطاعة أحد أن يقف في وجههم، ويجمعون ثروة طائلة. وها هو غوميز يصيح الآن قائلاً إنه سيكون لهم جريدة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكن ريكاردو أعرب عن شكه:

ـ هذا حسن، لكنها مجرد فكرة! فكرة...

ـ فكرة تتحول الآن إلى حقيقة.

ـ إشرح لنا هذه القصة يا غوميز. قالها لوبيز متوسلاً.

ـ انظروا. إن رئيس بلدية إحدى تلك المدن الداخلية يريد أن نؤسس جريدة... جريدة البلديات... ستكون شركة مغفلة، يشارك كل رئيس بلدية في ملكيتها لقاء مبلغ من المال أما نحن فنشارك فيها بأقلامنا. سنشتري الماكينات، وستدافع الجريدة عن رؤساء البلديات الحاليين وإدارتهم. ما رأيكم؟

سيكون بيدرو تيسيانو مديراً لها، وخوسيه لوبيز رئيس تحريرها، وتتألف هيئة التحرير من كل من ريجر وريكاردو وجيرونيمو. أما هو غوميز، فيكون المدير التجاري، الذي يستقصي وسائل النجاح، ويكتب، في أوقات فراغه، ريبورتاجات. إنها مشروع، من أهم...

ـ في الواقع...

ـ سنسحق الأوباش، قهقه ريكاردو. (الأوباش هو الاسم الذي كان يطلقه على الخلاسيين، أعدائه، الذين كانوا يحسدونه على "سحنته النيابية"). أنت عبقري يا غوميز، أريد أن أقول إن رئيس البلدية هذا عبقري...

اقترح تيسيانو أن يشربوا نخب رئيس البلدية. وطلب جيرونيمو علبة سكاير على حساب الـ "إيستادو دي باهيا"، كما قال.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وراحوا يرسمون الخطط، يحلمون. وأخذوا يتصورون باهيا واقعة في يدهم، يقولون إنهم في البداية سيعملون دون أن يطمعوا بأرباح، وبعد ذلك...

لعلهم سيثرون، ويذيع صيتهم في البلاد، وينشرون كتباً. لعلهم سيعيشون، أخيراً.

وقال خوسيه لوبيز:

ـ أنا لا أؤمن بذلك. بالطبع سنواجه خيبات، ومتاعب...

أما ريكاردو براس فإنه يجد كل هذا شيئاً يسيراً بالنسبة إلى حياة بكاملها. "العمل لا يكفي. يجب أن يوجد الحب...".

وكان غوميز وحده، بادي الارتياح، يضحك مسفراً عن أسنان بحالة سيئة. ثم انتصب وراح يمشي بخطى كبيرة. إنه على طريق النصر...

***

مضى على وجود باولو في المزرعة عشرة أيام، وهو يشعر بالسعادة. كان على يقين من أنه يمتلك جولي كلياً. ومن يمكن أن يتجرأ ويلقي نظرة على عشيقة السيّد؟ على أي حال، إن جولي لا يمكن أن تفسح المجال لأي من أولئك العلوج، الذين هم إلى البهائم أقرب منهم إلى البشر.

كان ريجر يمتطي جواداً كل صباح ويقصد القرية لفترة وجيزة، ويعود بجرائد ومجلات يطالعها في المساء، على ضوء قنديل الكاز، قبل أن ينام. و لم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تكن جولي ترافقه، متذرعة بأنها لا تحب ركوب الخيل.

في ذلك اليوم، وكان يوم جمعة، ذهب ريجر إلى القرية باكراً. كانت السماء غائمة قليلاً، مما ينذر بسقوط المطر. وفي منتصف الطريق، ازداد خطر هطول المطر، فقرر باولو العودة إلى المزرعة. عند وصوله لم يجد جولي في البيت، فراح يبحث عنها حول البيت. لماذا تراها خرجت؟ لعلها أرادت أن تقطف ليمون الأفندي...

كان ريجر ينحدر، دون اهتمام على الدرب المؤدية إلى العين التي تنتصب بقربها شجرة كبيرة من ليمون الأفندي، حينما بدرت منه التفاتة جانبية، فامتقع لونه.

كانت جولي وهونوريو تحت شجرة "جاكييه" متعانقين مبتسمين. وكانت تنورتها مشمّرة، كاشفة عن فخذيها البيضاوين.

لم تصدر عن ريجر أية حركة، خوفاً من الفضيحة. فعاد إلى البيت ينتظر...

وعادت جولي عند الظهر. ولاحظت العبوس على وجه ريجر، فخشيت أن يكون قد اكتشف كل شيء. إلا أنها، وهي المتمرسة بهذا النوع من الحالات، لم تضطرب:

- هل عدت منذ وقت طويل يا حبيبي؟

Collection of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

- أجل منذ وقت طويل.

- كنت أتنزه جانباً في الأرض.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ أجل، اعرف ذلك. أعدي حقائبك. سنرحل غداً.

لم تجادل. وذهبت إلى غرفتها. أما هـو، فمضـى يبحـث عـن ألجيمـيرو. فوجده بالقرب من "زورق"، يسهر على تجفيف الكاكاو.

ـ إلجيميرو، أطرد هونوريو.

ـ لكنه، يا معلم، مدين للمزرعة بستماية ألف ريس.

ـ جد لـه طريقـة كـي يدفـع واطـرده. إذا كـان لا يحـوز المـال، فـاطلب توقيفه.

ـ إنه يملك بيتاً في البلدة. ومن بدل إيجار هذا البيت ينفق علـى ابنتـه الـتي ترتاد المدرسة في إيليوس.

ـ ماذا يساوي البيت؟

ـ حوالي خمسماية ألف ريس.

ـ خذ البيت.

وانصرف؛ وسار الجيميرو في أثره متمتماً:

ـ إذا شئت يا معلم، يمكن أن نقتل الرجل... أو نطعمه قتلة. بديهـي أنـه ليس من حقه أن يتطلع صوب وسادة السيد...

ـ لا. خذ البيت وكفى.

***

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في غرفة النوم الوحيدة في البيت لم يكن يوجد سوى سرير واحد. استلقت جولي على السرير. وقال ريجر في نفسه إنه من الصفاقة أن يقضي ليلة بيضاء بسبب عاهرة، واستلقى على السرير إلى جانبها.

انكمشت هي في زاويتها، تاركة أحد نهديها ظاهراً، كما بالصدفة. وأحس هو بأن رجله تلامس رجل جولي، فاجتاحته قشعريرة من رأسه حتى أخمص قدميه. وشاء أن ينهض فلم يستطع. واستدارت هي في السرير والتصقت به. فداعبها باولو. وتعانقا. وتضاجعا...

وفي اللحظة الحرجة، سألته:

ـ سامحني...

ـ لا!

وأبعدها. وأخذ بخناقها. فصرخت. فتركها. كان يشعر برغبة جنونية في تمزيقها. فشتمها. فضربها بقبضة يده. فصاحت:

ـ نذل!

فأوسعها ضرباً كيفما استطاع. ثم تركها تبكي في السرير، وخرج. واخذ يستنشق هواء الليل بقوة. في السماء كان القمر يختبىء وراء غيمة.

وكان يبدو أن الريح تنشد في أذنيه نشيد الكرنفال:

ـ إضربها...

ـ إضربها...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- ٦ -

شهر من العمل الشاق. إن الـ " إيستادو دى باهيا" تستأثر بوقتـه كلـه، فهي يجب أن تصدر خلال أيام. كان باولو ريجر وخوسيه لوبيز لا يغادران مكتب التحرير، حيث كانت تجري اجتماعات طويلة. إن كـلاً مـن هذيـن الرجلين المختلين تماماً كان يفهم الآخر. لم يكن كلاهمـا راضيـاً عـن الحيـاة التي يعيشها. وكان كل منهما يشـعر بضـرورة وجـود شـيء يجهـل طبيعتـه، شيء ينقصه. وقد انتهى كل منهما إلى خلاصة تقـول بأن الإنسـان يحيـا من أجل شيء سام. ما هو هذا الشيء ؟ يجزم ريكاردو براس أن غاية الحياة، أي السعادة، هي في الحب. ويلمح جيرونيمو سورايس بخجـل إلى أن الديـن قـد يكون قادراً على إشباع هذه الحاجة إلى الغاية عند جميع الناس.

أما باولو ريجر ، فيميل الى رأي ريكاردو. و لم يشك خوسيه لوبيز بـأن جيرونيمو على حق ، غير أنه لم يتوصل قط إلى ذاك اليقين الذي توصل إليـه الآخرون. وأما بيدرو تيسيانو ـ الـذي أصيـب بمـرض في عينيـه يكـاد يفقـده البصر، فهو يقسم، استنادا إلى خبرة سنيه الخمس والستين ، على أن الإنسان المتفوق لا غاية للحياة عنده. إنه يحيا لكي يحيا.

لكـن ريكـاردو بارس إنسان متفوق، وهو يؤكد، مـع ذلـك، أن الحب، الزواج، الحياة البرجوازية، تجلب السعادة.

ـ هـل أحـب ريكـاردو؟ هـل تـزوج؟ إذا أحـب، إذا تزوج، سيخيـب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ظنه...

كان خوسيه لوبيز من أنصار تيسيانو. فالحب لايستطيع أن يأتي بالسعادة...

وأضاف بلهجة ظافرة.

- والارتواء ؟ ومأساة الارتواء ؟ من الممكن أن يكون الفوق طبيعي ـ الله، الدين ـ يعزي الانسان.

وصر بيدرو تيسيانو بأسنانه قائلاً:

- لا أشك في أن هذا يمكن أن يعزي. لكن من يطلب العزاء هم الضعفاء، هم الأردياء، أولئك الذين لا يستطيعون أن يناضلوا بمفردهم في الحياة، فهم بحاجة إلى الله.

- أنا أعترف بأني سأسقط اذا ناضلت لوحدي...

- دعك من هذا أنت تبحث عن معنى الحياة - أليس كذلك ؟ حسناً. إنه شيء دماغي تماماً. فأنت تبحث عن شيء سام، عن تلك الغاية، لأنك غير راضٍ عما هو موجود... أنت لا تريد تعزية... إن مسألتك هي من اختصاص الدماغ لا القلب...

- هذا خطأ الأمر عائد إلى القلب أكثر بكثير منه إلى الدماغ. كن على يقين من أن هذا القليل الذي تملكه من الدماغ هو الذي يبعدنا عن السعادة... إن ريكاردو يكون تعيساً في الحب لأنه سيسجل أصغر عيوب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

زوجته، وقلة أناقتها عندما تقوم بالطبخ أو بتنظيف البيت. أما ريجر فهـو، في الدين، ينتـقد قلة شاعرية بعض الصلوات وفرط الشاعرية في كثير غيرها.

- صحيح أنت تشاطرني رأيي. فلو كنت مثل جميـع الآخريـن، لكنـت تجد السـعادة في أي مكـان. في الديـن، في الحـب، في العمـل، في أي شـيء. ولكن بما أنك متفوق، فإنك لن تجدها أبـداً. السـعادة تخـص فقـط **الحمير** والبلهاء. لحسن الحظ نحن تعساء.

وعاد غوميز، بعد أن أدلى بشهادته في دعوى فض بكارة. لقد أساء أحد أصدقائه معاملة فتاة، ولكي لايجبر صديقه هذا على الزواج منها، فقد ذهـب إلى مركز الشرطة وصرح بأن المسكينة لا تساوي فلساً.

- صحيح أنها لا تساوي شيئا؟

- لست أدري. لكني أعرف أن الآخر رفيقي.

- يا لك من حيوان.

وراح غوميز يروي ما جرى ضاحكا. لقد شاء مفوض الشرطة، الأحمق، أن يقسم غوميز ويده على التوراة، بأنه يقول الحقيقة. ومضى أحدهم ليـأتي بتوراة، فلم يجد. فجاء بـ " أدوريـموس"(*) وطلـب المفـوض منـه أن يقسـم عليه. وهنا أفحمه...

(*) هو كتاب صلاة. (المترجم).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ كيف هذا؟ أنت تقول إن عليّ أن أقسم على التوراة. ولا توجد توراة، فتأتيني بـ "أدوريموس" ولو أنك لم تعثر على أدوريموس، لكنت طلبت مني أن أقسم على أول كتاب لـ "فيلسبرتو دى كارفالبو" أليس كذلك؟

وضحك الجميع.

ـ كانت جيدة، أليس كذلك ؟

ـ جيدة جداً ممتازة ؟

وخرجوا. عند الباب كانت هناك زنجية تبيع فستق العبيد المشوي وقطعاً دائرية من قصب السكر.

توقف غوميز ليشتري شيئا من الفستق.

ـ هذا لا يليق بالمدير التجاري للجريدة...

ـ رُح إزرع الفول أنت!

وافترقوا.

ـ هل تأتي هذه الليلة ياتيسيانو؟

ـ لا أستطيع... عيناي لا تسمحان لي بذلك...

وحاول تيسيانو أن يبتسم، لكن مسحة من الحزن اللامتناهي ارتسمت علىوجهه المتجعد .

صعد إلى الترامواي. وعاد إلى منزله وهو يثرثر مع جارته دونا مرسيدس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التي تتذمر من زوجها، الغارق في السياسة على الدوام (وطبعاً مع المعارضة...) غير خائف من أن تصيبه رصاصة أو تنزل به ضربة...

- يا لتعاسة زوجي جوانو... وهو ذو الطيبة الجمة، والرعاية الكريمة...

ومسحت دموعها كأنما زوجها فارق الحياة.

دفع تيسيانو ثمن تذكرتي الترامواي. وتابع الجابي جولته وهو يصيح:

- من فضلكم، سيداتي سادتي.

كان تيسيانو يصغي إليه. فخطر بباله أصدقاؤه، الذين يمضون حياتهم وهم يرددون:

- السعادة، من فضلكم.

وكان على يقين من أنهم في آخر المطاف سيصيرون مثله، متشككين، لا مبالين، مترفعين عن الحياة.

وكانت دونا مرسيدس تتلو له خطاباً ألقاه زوجها.

***

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عندما وصلت ماريا دى لورد إلى منتصف الدرج (درج طويل يمكنه أن يجلب لك مرض السل خلال شهرين) أخذت تصيح.

ـ ديندينيا يا ديندينيا(*) !

فأسرعت إلى الباب العرابة وجميع النساء الساكنات في تلك التتخيتة المجاورة للطابق الرابع الذي يسكنه أناس من البروتستانت، والمجاورة للسماء. كانت ماريا دى لورد تصعد الدرج مسرعة، لاهثة، وشعرها الكستنائي منفوش، وعيناها متمددتان، كبيرتان.

ـ ماذا في الأمر يا لوردينيا ؟

ورددت النسوة:

ـ ماذا في الأمر، ماذا في الأمر ؟

والفضول يفيض من عيونهن، وأفواههن مفتوحة، متحرقات الى معرفة ما في الأمر.

ـ اليوم توجد سينما مجانية.

فزجرتها العرابة، إذ لم يكن هناك حاجة لإثارة كل هذا الضجيج بسبب السينما. لقد أخافتها: حسبت أن أحداً من معارفها قد مات...

فاعتذرت ماريا دى لورد. السينما شيء نادر... إلاّ متى كانت مجانية.

(*)بالعربية، عرابتي. والمقصود الأم بالتبني.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت الإدارة ـ أناس لا قلب لـهم ـ قد أوقفت السهرات الأنيقة (الدخـول مجاني للسيدات والآنسات؛ الرجال يدفعون ألفاً ومئتي ريس(*) ، أما الأولاد ستماية ريس). أما الآن فإن المالك الجديد (لأن المالك السابق لم يتمكن مـن الاستمرار في الحي إذ أن النساء حاربنه حتى المـوت، فبـاع) أعـاد السـهرات المجانية لكي يكسب شعبية.

وأيدت جوقة النساء ماريا دى لورد.

ـ لوردينيا على حق. فالسينما نادرة... أما الأفلام، ما هي الأفلام ؟

وأخذت ماريا دى لورد تشرح لـهن بسعادة، والفرح العظيم يرقـص في عينيها الواسعتين:

ـ طوم ميكس "ملك الكاوبوي" لا بد أن يكون خارقا. البطلة هي... لم أعد أذكر... تلك الشقراء، الجميلة، ذات القبلات الطويلة، الطويلة جـداً... لا أجد سبيلاً إلى تذكـر اسمهـا. أنـا آسـفة. وهنـاك أيضـاً "لمـاذا تبكـي أيهـا المهرّج؟ "، وهو فيلم مذهل... والخاتمة هـي الحلقـات الأولى مـن مسلسـل "قطار الموت...".

ـ كم هذا مليح ؟ كم هذا مليح!

ونسيت أنه كان هناك أيضاً فيلم هزلي لـ "شوكا ـ شوكا".

ـ ونشرة الأخبار ؟ أليس هناك نشرة أخبار ؟

(*) ريس وحدة نقدية برازيلية متدنية القيمة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جاء السؤال من هيلانة، وهي شقراء في الثلاثين من العمر يدور حولها كلام كثير. يقال إنها ترتاد بيوتاً مشبوهة... وفي الشارع كانت دائماً برفقة عاشق جديد... إنها تريد أن تعرف ما إذا كان في البرنامج نشرة أخبار. فقد كانت مولعة بـ ألفونس الثالث عشر، ملك إسبانيا، وكان حضوره دائماً في نشرة الأخبار.

- لكنه متزوج يا دونا هيلانه.

- وماذا في ذلك؟ ليس بالأمر الخطير أن تكوني عشيقة الملك... إسألن فقط دونا ماريا. (دونا ماريا امرأة عربية نحيلة جداً استأجرت التتخيتة كلها وراحت تؤجر كل غرفة بمفردها. وتوشوش المستأجرات من وراء ظهرها: "إنها تجمع ثروة"). للملوك في بلادها أربعون امرأة...

- أنا لا أرضى أن أكون عشيقة حتى أغنى رجل في العالم.

- تقولين هذا... تقولين هذا... ومتى ظهرت رزمة الأوراق النقدية...

- أنت تظنين أن الجميع مثلك...

- رويدك إنهن أسوأ بكثير... أسوأ بكثير... المتعففات هن الأسوأ...

وراحت تلك النسوة يعملن بنشاط أكبر وبسرعة، لكي يذهبن مساءً إلى السينما...

إن تلك التتخيتة، رغم صغرها، تأوي عدداً كبيراً من الناس في الواجهة نجد العربية دونا ماريا مع ولديها الصغيرين، القذرين اللذين لا يكفان عن الصراخ، ويجعلان من الطابق والدرج مسرحاً لألعابهما. إنهما شيطانان على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حد قول دونا هيلانه. وفي الغرفة المجاورة ينام رجل مسن، يعمل ساعياً في مصرف. إنه يعود في المساء ويخرج في الصباح. يا له من مسكين. الجميع يجد أنه شخص طيب... وإلى جانبه، في غرفة صغيرة، تسكن ماريا دى لورد وعرابتها. العرابة، دونا بومبينيا، دونا جانواريا ليما، تشتغل بالخياطة. وما تكسبه من الخياطة (نحو خمسة الآف ريس في اليوم وهو مبلغ ضئيل). كانت تنفقه على نفسها وعلى فليونتها التي ربتها ولا ترضى لها أن تقوم بأي عمل ما عدا الاعتناء بالغرفة وشراء الأقمشة. في الغرفة الأخيرة تسكن دونا هيلانة وشفيقتاها جورجينا وبيبي، وهن يتشاجرن طول النهار. هؤلاء الفتيات يعرفن جميع أصناف الكلمات البذيئة، ولا يعملن إلا قليلاً. ولا يدري أحد كيف تجد هيلانة المال لتأمين الغذاء وبدل الإيجار، كما أنها فوق ذلك ترتدي ملابس جيدة. إن جورجينا بدأت تشتغل. أما بيبي، الصغرى، التي لا يزال نهداها في عمر البراعم، فتبقى في الغرفة تطرز أخفافاً للأطفال الرضع. (كانت تباع بسهولة في دكان في بيكسا دوس ساباتيروس على أنها من صنع فرنسا). في الغرفة المقابلة تسكن امرأة عربية ذات اسم معقد اختصره الجيران فأمسى فيفي. لهذه الدونا فيفي ابن شقي، شاب (بلغ السابعة عشرة) كان يأتي فقط ليسحب منها المال ثم ينفقه في اللهو والعربدة. كان يقضي وقته، بين رعاع من الصنف الأسوأ، في الاحتيال على نساء لاديرا تابواو المسكينات. واذا شاءت الصدفة أن يقضي الليل عند أمه، فإنه يظل عارياً في الغرفة ذاتها التي تأوي أمه، فينام هو في السرير، وتنام أمه على الأرض. ولا تكف عن الشكوى من الحياة التي يعيشها. فيكيل لها الابن الشتائم بالعربية، وتفلت منه أحياناً كلمة برتغالية سرعان ما يلتقطها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجيران المتنصتون:

ـ بغلة... ساحرة... نوتية...

فترسم دونا بومبينيا على وجهها إشارة الصليب قائلة:

ـ هذا الولد مسكون. النهاية ستكون سيئة.

وتؤيدها دونا هيلانة.

ـ وفوق ذلك، فإن الليلة التي يقضيها هنا هي ليلة لا يغمض فيها جفن لأحد. كان يتعارك مع أمه طوال الليل...جحيم!

إن بيبي هي الوحيدة التي تحبه. فقد كان يأتيها بالملبس ويجلسان معا على الدرج. كان يقرص حلمة نهديها المبرعمين، ويعض أذنها. وكانت هي لا تمانعه، مرتجفة. لقد كان مفرطاً في اللطف...

ـ هذا فحش! تغمغم دونا بومبينيا دفاعاً عن الأخلاق.

هذه المسكينة لم تتزوج قط، وهذه الأمور تضرب على أعصابها، فهي عصبية بشكل رهيب. وبسبب عصبيتها هذه تشاجرت مع شقيقتيها واضطرت أن تشتغل كي تعيش. هي وماريا دى لورد! مسكينة ماريا دى لورد! لقد عانت الكثير وهي بعد صغيرة إلى هذا الحد. لقد تخاصمت عائلتها مع دونا بومبينيا و لم تشأ قط أن تعرف شيئا عنها. وهكذا راحت لورد ترافق عرّابتها في جلجلة حياتها هذه.

ـ حياتي رواية طويلة يا سيد هوراسيو. كانت دونا بومبينيا تردد هذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكلام للسيد هوارسيو، الساعي المسن في أحد البنوك (والشاعر بعض الأحيان، وقد نشر أشعاراً في بعض من صحف باهيا بتوقيع مستعار: فيفالدو مورينو). إنها حكاية طويلة... لا ينقصها سوى الكتابة.

كان لماريا دى لورد ست عشرة سنة من العمر، وكانت جميلة جداً، ولها عينان، عينان واسعتان حزينتان، تبدوان غارقتين وراء غشاوة شفافة. وشعرها المنسدل حتى كتفيها، كان ذا ألوان متماوجة من الأشقر الكستنائي. أما نهداها الصغيران فكانا نافرين تحت قميصها. ولها شفتان شديدتا الإحمرار تناديان القبلة. كانت لها سمعة فتاة محترمة. ولا يعرف لها إلا عاشق واحد هو أوسفالدو الذي يحبها من أيام المدرسة الثانوية (تعرف عليها في المدرسة الابتدائية). وكانا حتى مخطوبين أحدهما للآخر. لكن المسكين توفي ولم يبق منه الآن إلا رسم تحتفظ به ماريا دى لورد كآخر تذكار من "أوسفالدو الذي لا ينسى"...

إنها لفتاة مسكينة، ماريا دى لورد.

- ٧ -

في تلك الليلة تناول باولو ريجر طعام العشاء مع ريكاردو براس الذي كان قد نال شهادته الجامعية قبل ذلك ببضعة أيام. وتحدث الاثنان كثيراً عن كل شيء. عن البرازيل، وعن الثورة التي كانت أخبارها تملأ الصحف. لم يكن باولو ريجر يعتقد بأن الثورة ستحسّن حالة البلاد، ولا ريكاردو كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعتقد ذلك. إلاّ أنها، في أي حال، لا يمكن أن تزيدها سوءاً. فالبرازيل "على شفير الهاوية". إنها لعبارة طنانة، ولكنها صحيحة.

ـ إذن فلتسقط في الهاوية! فلتسقط! لا بد أن يكون شيئاً مضحكاً أن ترى البرازيل في قعر الهاوية...

وانفجر كلاهما بالضحك.

ريكاردو يجد أن في البرازيل، رغم كل شيء، مشكلات تثير الاهتمام، جديرة بالدرس.

ـ إن أكبر مشكلة في البرازيل هي في معرفة ما إذا كان اسمها يكتب بالحرف "S" أو بالحرف "Z".

ـ لا، هناك مشكلات جديرة بالاهتمام. مشكلة الشمال مثلاً...

واشترك في النقاش جيرونيمو سواريس، الذي كان قد حضر هو أيضاً وليمة براس:

ـ يجب أن نفكر أيضاً بسعادة الشعب... بسعادة الوطن...

أبدى ريجر شكّه في ذلك قائلاً:

ـ لا ينبغي للمرء أن يشغل باله إلا بسعادته الشخصية. ويوم يصير كل شخص سعيداً، تصير البشرية سعيدة... أنا لست ممن يتقبلون حكاية التضحية بالذات في سبيل الصالح العام. أما الوطن... فأنا لا أحس بالوطن. أنا لم أحس بأني برازيلي إلاّ مرتين، مرة في الكرنفال، يوم رقصت السامبا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشارع، وأخرى يوم ضربت جولي لأنها خانتني.

ـ الحق مع تيسيانو. فهو قد عرّف الوطن تعريفاً جيداً في المقال الذي قدم به جريدة الـ "إستادو دى باهيا".

وتذكر ريكاردو.

وتلا جيرونيمو المقطع:

ـ "الوطن هو المكان الذي يجد فيه الإنسان، ذاك الحيوان الدوني المسكين، شيئاً يقتات به، ومكاناً يضاجع فيه امرأة أو رجلاً آخر، حسب ميوله".

ـ هذا كلام جميل!

في الحقيقة إن غوميز قد استشاط غيظاً. فكان يصيح أن الجريدة فقدت هيبتها. أما خوسيه لوبيز، فلم ينتقد، ضاحكاً، إلاّ العبارة المتعلقة باللواط. وراح الاثنان يمازحان غوميز.

ـ أنا مثلاً، وُلدت في البرازيل. لكن تربيتي فرنسية برمتها... فما أنا عليه الآن أنا مدين به لفرنسا. أيهما وطني؟ إذا نشبت حرب بين البرازيل وفرنسا، لأجل أي بلد منهما يجب عليّ أن أقاتل؟...

وسأل جيرونيمو:

ـ والمشكلة السياسية، ما رأيك فيها؟ الحركة الفاشية كبيرة. الدعاية الشيوعية ضخمة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

– أنا لست مع هذه ولا مع تلك. فلا ينبغي للبرازيل أن تستورد أنظمة سياسية. كنا نستورد كل شيء حتى الآن. حتى الدستور استوردناه. فهل أفادنا؟ ينبغي لنا أن نستوحي من أمتنا كل شيء. من أنظمة الحكم حتى المومسات... لا شيوعية ولا فاشية... لا بولونيات ولا فرنسيات... قالها ريكاردو بلهجة الحبر العلاّمة.

– إنتبه، يا ريكاردو، إن هذه الياقوتة الحمراء التي في إصبعك تنقل مرضاً معدياً: الكلام الطنان... فأنا شيوعي... وكاد ريجر يختنق بقطعة من اللحم.

لم يصدق جيرونيمو ما سمع:

– شيوعي؟ أنت، أيها الارستقراطي؟ قل هذا الكلام لغيري...

ـ لكن الشيوعية ، يا ريجر، جميلة نظرياً... أما تطبيقياً، فهي كارثة. مساواة، مساواة... وعندما يصل العمال إلى الحكم يضربون الشعب... هذه هي الشيوعية عملياً.

ـ ولكن لهذا بالتحديد أنا شيوعي... الشيوعية ستضرب البرازيليين ثلاث مرات في اليوم. وسيسير الشعب على خط مستقيم... فأنا أؤيد الشيوعية العملية في البرازيل. إن الدواء الناجع الوحيد للبرازيليين هو السوط...

ـ آه، آه، آه. ها أنت تغدو تيسيانو جديداً.

ـ مسكين تيسيانو، إنه شبه أعمى! ورغم ذلك فهو لا يزال يهزأ بالحياة؛ إنه متفوق...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ أعتقد أحياناً بأن تيسيانو على حق. بأن حياتنا يجب أن تكون سلسلة من المصائب، من الخيبات... إننا غير جديرين بالسعادة...

ـ إننا يجب أن نحيا لكي نحيا... ربما. لكنني لا ارضى بأن أصدق ذلك. أنا ما زلت آمل...

ـ وأنا أيضاً. قالها ريجر وهو يحني رأسه صوب يديه.

فقال جيرونيمو:

ـ أنا من رأي تيسيانو.

ـ وتمتم ريجر في أذن ريكاردو:

ـ إن جيرونيمو، حسب نظريات تيسيانو، هو الوحيد بيننا الذي يمكن أن يكون سعيداً...

ـ لكنه يخشى أن نعتبره دونياً...

ثم دار الحديث حول النساء.

ـ إذن، لقد نسيت جولي تماماً، يا باولو؟

ـ أجل. إن الجسد، يا ريكاردو ليس كل شيء في الحب؛ أنا من رأيك...

ـ أخيراً! أما كنت أقول لك هذا؟ فلو أنك أحببتها بقلبك أيضاً لما كنت نسيتها أبداً...

ـ دون ريب... لكني أعتقد أن الحب لم يعد له وجـود. لعله وجـد مـن قبـل. أمـا اليـوم فلـم يعـد يوجـد سـوى الجسـد... الـذي لا يُشـبع، هـذا صحيح...

ـ لا تزال توجد اليوم حالات من الحب ـ العاطفة، حالات زواج سعيد، حالات عشق...

ـ أجل، في روايات بيريز إيسكريش.

***

عند مدخل السينما المشعشعة، حصلت المعجزة. كـانت عينـا ماريـا دى لورد الغائمتـان تبتسمـان. وكانت شفتاها أيضاً تبتسمان لباولو ريجـر. فشعـر هذا بأن قلبه ينشد أغنية ابتهاج. ووقف أمامها يتأملهـا بإعجـاب. يا لـهاتين العينين! واسعتان، غامقتان، حزينتان... فهل جبلتا من غمام أم من ارتيـاب؟ وهذا الشعر الكستنائي الحالم بأن يكون اشقر... شـلال مـن الشـعر (أجـل، الكلام الطنان، طبعاً!). وشفتان بليلتان، متعطشتان إلى الحب...

كانت النسوة تتدافعن على باب السينما في حالة من الازدحـام يسـتغلها الشبان ليدغدغوا الفتيات.

وهمّت ماريا دى لورد بالدخول فهرع باولو إلى شـباك التذاكـر، ودفـع ألفي ريس تاركاً العملة الزائدة... ودخل بصحبـة ماريـا دى لـورد، دون أن يسمح للوقحين بأن يلمسوها كما كانوا يفعلون مع الأخريات.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في القاعة، كان العرض قد ابتدأ. ظلت ماريا واقفة إلى جانب عرابتها التي قعدت على آخر كرسي في القاعة الغاصة بالحضور. كانت الاثنتان قد اتفقتا على استعمال المقعد بالتناوب. فعند كل تغيير في البرنامج كانتا تبدلان مكانهما، فتقعد الواحدة وتظل الأخرى تتفرج وهي واقفة.

على الشاشة، كان طوم ميكس، الفارس التائه في أريزونا(*)، يقوم بأعمال بطولية جديرة بالعصر الوسيط كي يفوز بقلب سيدته. لقد تكلم باولو ريجر كثيراً وهو واقف وراء ماريا دى لورد. وكان ينبعث من شعر الفتاة عطر قوي، شديد، (القمقم منه يساوي ألفي ريس في دكان السيد أوزياس. لا يصدق أحد أنه يساوي أقل من أربعين ألف ريس. ويقول السيد أوزياس إنه يدخل البلاد تهريباً).

حكى لها باولو عن الفراغ في حياته، وعن الوحدة والكآبة. "أتريدين أن تكوني ربة حياتي؟... لماذا لا تكونين سيدة قلبي...؟" وتغزّل بعينيها... وفرط جمالهما... وبشعرها، وبكل ما فيها... وقد بدت وكأنها رؤيا شرقية... كأنها شهرزاد جاءت تحكي له حكايات جميلة تفرحه. وهي إلى فرط جمالها، لا بد أن تكون طيبة أيضاً...

كانت تبتسم وهي تشاهد الفيلم. وعلى الشاشة كان وجه طوم ميكس يختلط بوجه باولو ريجر الذي لا يفتأ يتكلم، وراءها...

حان وقت تغيير البرنامج. وغرقت القاعة في الأنوار. ونهضت العرابة.

(*) أريزونا ولاية من الولايات المتحدة الأميركية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكن ماريا دى لورد طلبت منها أن تظل جالسة: «لا تنهضي يا عرابتي، إنني مرتاحة وأنا واقفة».

خرج باولو ريجر من قاعة السينما وقلبه يطفح بالسعادة. كان يشعر بالرغبة في أن يصيح بكل ما فيه من قوة: «أوريكا! لقد وجدت السعادة!» وتبع ماريا دى لورد حتى بيتها. واجتاز لاديرا بيلورينيو وهو غارق في حلمه إلى زمن الاستعمار. وتوقفت المجموعة المحيطة بماريا دى لورد أمام بناية عالية يذكر شكلها بمنظر تابوت. كانت الظلمة في اسفل الدرج قاتمة، فلا يصل إلى هنا أي خيط من نور. وعند الباب كانت توجد سيدات ساكنات بالقرب من هناك، فألقين التحية. وفي الجهة المقابلة كان ريجر يدخن سيكاره وهو يتفرس في ماريا بعينين ذابلتين ترشحان هياماً.

أما هي، وكانت ترتدي فستاناً أنيقاً جداً، فكانت تسترق النظر إليه، وتكاد تذوب ولهاً. وعندما بارحت السيدات قالت دونا هيلانة وقد غلب عليها النعاس:

ـ أنصعد؟

وصعدتا. وقبل أن تغيبا في الظلمة، دغدغت ماريا دى لورد بنظرتها الغائمة فرحة باولو ريجر الوليدة.

ظل حوالى نصف ساعة ينتظر إطلالتها على إحدى نوافذ الطوابق الثلاثة. إنه لم يكن يعلم أن تلك التتخيتة الكئيبة ليس لها نافذة تطل على الشارع، وأنه ليس لها سوى باب يفضي إلى الدرج القذر...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أخيراً عيل صبره، فسار في الشارع وهو يدندن...

جميع الأصحاب، ما عدا بيدرو تيسيانو الذي لم تعد عيناه قادرتين على مجابهة الليل، كانوا في البار. كانوا يصغون إلى جيرونيمو سواريس وهو يروي قصة ممتعة جداً عن ناقد أدبي من باهيا فوجيء وهو يقبض مبلغاً من المال من شخص شبه مثقف لكي يقرظ كتاب شعر سيصدر عما قريب.

فقال ريجر، وهو يسبح في بحر من السرور، مبدياً من الحلم ما لم يكن معهوداً عنده حتى حينه:

ـ مهلاً، لا يجب إعارة هذا الأمر كثيراً من الاهتمام. ينبغي أن نعذره، أن نغفر... يجب أن نسامح دائماً في الحياة. على الأشخاص المتفوقين أن يحبوا قريبهم...

ـ وخصوصاً قريبتهم؛ قالها غوميز ساخراً منتشياً.

ـ دعك من هذه المزحات السخيفة يا صاح... ماذا كنت تقول يا ريجر...

ـ إنه يجب أن نحب بعضنا بعضاً. وأن نتحلى بكثير من اللامبالاة إزاء أولئك الذين ليسوا، ولا يستطيعون أن يكونوا، مساوين لنا... يجب أن نسامحهم دائماً... ولا ينبغي لنا أن نندهش لما يفعلون من أمور حمقاء أو خرقاء... فهم دوننا. إنهم لا يعلمون ما يفعلون...

ـ عشت، أيها المسيح!

ـ لم أكن أعلم أن لك مثل هذا القلب الكبير.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان خوسيه لوبيز موافقاً على أقوال ريجر. أما ريكاردو وجيرونيمو سواريس فقد وصفاها بأنها "مزحة جديدة من باولو".

ـ لا يجوز أن نغفر البلاهة. لا يجوز ولا يمكن ... وإلاّ كان عليّ أن أغفر الحماقة القذرة لأولئك الخلاسيين الذين يصدرون مجلة تُعتبر تحقيراً للصرف والنحو واللأدب في هذه البلاد! كان ريكاردو براس هو المتكلم.

ـ ليس الذنب ذنبهم. فليسوا هم الذين خلقوا أنفسهم تافهين.

وتأسّف جيرونيمو لكون بيدرو تيسيانو غير حاضر ليسمع البوح بمشاعر باولو ريجر الطيبة.

ـ ولكن عليهم أن يدركوا مدى رداءتهم ويحتجبوا. أنا أعذر المعتوهين المقتنعين بعدم أهليتهم. أما أولئك الذين يظنون بأن لهم قيمة ما، فلا...

وكان لرأي خوسيه لوبيز اثره في الجماعة:

ـ أعتقد أنه ليس من واجبنا أن نهتم بهؤلاء الناس... أن نوليهم أهمية. لماذا نفكر في هؤلاء الأوباش؟ إنهم أولى بأن ننسى أنهم موجودون...

ـ وهل هم موجودون حقاً؟ هل لهم ما يكفي من القوام كي يكونوا موجودين؟ إنهم يعيشون، ولكنهم غير موجودين... شدّد غوميز على ذلك وهو ينفث دفعة من الدخان في جو البار.

ـ لماذا أنت على هذه الدرجة من السرور اليوم يا باولو؟

ـ إحزر! لعلني اليوم صادفت السعادة... من يدري إن كنت لم أكتشف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطريق، اليوم... قد لا تكون الغاية خارج متناول يدي...

واستغرب خوسيه لوبيز قائلاً:

ـ لعلك عاشق يا ريجر؟ هذا ليس ببعيد عنك. إن أمثالك من الرجال الذين يدّعون أنهم بلا عواطف هم سادة العاطفيين.

ـ لا يعرف أحد اين ينتهي الدماغ وأين يبتدىء القلب...

ـ أنت معرّض للإصابة بالهوى المفاجىء... أتذكر حكايتك مع جولي؟ لقد استطعت أن تحب تلك الامرأة.

ـ كنت أشتهيها، هذا كل ما في الأمر.

ـ كن حذراً يا باولو، كن حذراً. لا ترتكب حماقة.

لم يكن هناك من داع لقلق خوسيه لوبيز. في الواقع لم يكن هناك شيء. فكل ما في الأمر أنه غازل في قاعة السينما فتاة جميلة، ورومنطيقية. لقد وشوش في أذنيها كلمات بلا معنى. وهي لم ترد عليه حتى، بل اكتفت بابتسامة. صحيح أنه كان مسروراً جداً بذلك، ولكن لم يكن الأمر جدياً بتاتاً...

ومع ذلك، فقد أوصاه خوسيه لوبيز بأن يكون حذراً، على عكس ريكاردو براس الذي نصحه بمتابعة المغامرة.

ـ قد يكون ذلك بداية سعادتك. ولا يحق لأحد أن يدعها تفلت من يديه... أما أنا فمنذ أن يظهر مثلي الأعلى سأتزوج. وإذا مرّت السعادة عند

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

متناول يدي، أؤكد لك أني سأتشبث بها...

ـ رويدك! الحب ليس غاية أي إنسان. لا الحب ولا الزواج. الحب لا يزيل عدم الرضى، لا يزيل القلق. فهذا القلق شيء أكثر جدية بكثير. إن تيسيانو يقول الحقيقة، أنا أقر بذلك. المشكلة دماغية جداً...

ـ أنت تغير رايك سريعاً. فلبضعة أيام خلت كنت تجزم بأن عدم الرضى هذا مسألة عاطفية، وتكاد تكون غير دماغية. أنا أشاطرك الرأي الذي قلت به في ذلك اليوم، يا صاحبي القديم...

ـ إنها مزيج من العاطفة والدماغ. لكن الدماغ وحده يقرر. وقلت ايضاً إنه لا يمكن الوصول إلى السعادة عن طريق الدماغ... فالعاطفة يمكن إشباعها، أما الدماغ فلا. إذن الحب لا يحلّ المشكلة...

ـ بل يحلّها. إن الأشياء البشرية الطبيعية، يمكن أن توفر للحياة البهجة والسعادة... هل فهمت؟

ـ فهمت وأنا أخالفك. هذا كله شيء قليل جداً. إن الفلسفة، المعرفة الفلسفية، أجل، يمكن أن تجلب شيئاً من العزاء. ولعلها حتى تحلّ المشكلة. أنا أرى حلها على هذا النحو...

ـ الفلسفة! دعك من هذا! وحدها الأشياء الطبيعية، الحب، الغريزة، الإيمان، العمل، تستطيع أن ترضينا... وحدها الأشياء المشتركة بين جميع الناس...

ـ كلا، الفلسفة وحدها تستطيع ذلك.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقال ريجر:

ـ لقد فشلت عندما بحثت عن الحل في الغريزة، في الجسد. أنا قادر على البحث عنها في الحب ـ العاطفة. وقد أذهب حتى إلى الدين... ولكن ليس إلى الفلسفة. لا بد أن تفضي الفلسفة إلى التباس ذريع. تدلنا على خمسين طريقاً، وخمسين طريقاً يستحيل سلوكها...

ـ بالضبط.

ـ وكيف يمكنك بلوغ الدين بدون الفلسفة؟ أنا أسلّم معك بأنك تصل إلى الحب عن طريق الحواس. أما الدين؟...

ـ سأصل إليه بالعاطفة. دون مطالعة مجلدات، ودون التعرف إلى ماريتان والقديس توما... سأكون كاثوليكياً، ولن أكون أبداً تومانياً...

ـ هذا مزاح يا باولو. إنك لن تصل إلى الحب، واقل من ذلك إلى الدين! أنت ستكون تيسيانو آخر في الحياة. تنقصك الجرأة لتحقيق ذاتك، عائشاً، موجوداً فقط...

ـ لا، سأحاول. خوسيه لوبيز حانق اليوم. لماذا؟

ـ لست حانقاً. أنا أشعر بالخيبة قليلاً. هذا كل ما في الأمر. فأنا لم أعد أؤمن حتى بالصفاء. يقول تيسيانو إننا "متسوّلو السعادة"...

ـ إنه على حق. في نظري أن تيسيانو لاقى حلاً لمسألة قلقنا، قلق كل الناس في عالم اليوم، وهو يحرص على الاحتفاظ بسرّه... إن الحياة لا تشغل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

باله... يا له من إنسان سعيد!

ـ سعيد، هو؟ إنه متشكك. إنه يضع نفسه فوق الحياة. يجعل من نفسه مشاهداً. إنه لا يحيا، بل يعلّق على الأمور، يتهكم، يهدم. هذا كل شيء، وهذا ليس من السعادة بشيء، وإنما هو تأليه للقلق، للتعاسة. تيسيانو يعتقد بأن الألم وحده جمالي. الألم وحده جميل. وبما أنه يضع الجمال فوق كل شيء، فهو إذا يحب الألم. إنه يعشق الهزيمة. ويفاخر بفشله. لقد كتب منذ ايام قصيدة عنوانها «موشح اشهب لارتيابي». إنه من تلامذة فولتير(*) على نصف أبيقوري. لا، ليس من أتباع أبيقور(**) فهو لا يحس حتى بالسرور في الحياة. إنه لا يحس إلاّ باللامبالاة... وهو يؤكد أننا سنصير على شاكلته. أنا أظن ذلك أحياناً، فأغدو كما تراني اليوم. أنا أناقض نفسي وأنقض آرائي الشخصية، فأغدو أسطوانة تردّد ما تفيض به قريحة بيدرو تيسيانو على موائد البارات...

قال ريجر:

ـ من الغريب أننا نحارب بيدرو تيسيانو مع أنه معلّمنا. لقد تعلّمنا منه اللامبالاة والتشكك. وها نحن الآن نحارب هذا التشكك... وتيسيانو يلاحظ ذلك.

(*) فرنسوا ماري أرواي فولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨): فيلسوف فرنسي تزعم حركة الفلسفة المادية.

(**) أبيقور (٣٤١ ـ ٢٧٠ ق. م.) فيلسوف يوناني دعا إلى الاستمتاع باللذات المعنوية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ أجل إنه يلاحظ ذلك. ولكنه يسخر منا، لعلمه بأننا في آخر الأمر سنرى أنه على حق...

ـ نعم، نحن في آخر الأمر مدينون له بما نحن عليه. مدينون له، وهو صديق لنا قبل كل شيء. إنه متشكك، لا مبالٍ، ولكنه صديق حتى النهاية.

ـ إن قاعدة الحياة عند تيسيانو هي «أن تعرف كيف تكون صديقاً، وأن تعرف كيف تكون عدواً».

فقال خوسيه لوبيز راثياً لحاله:

ـ لقد أمسى المسكين شبه أعمى! يا لها من فاجعة حياة هذا الرجل ذي الموهبة العظيمة، الذي لن يعود عما قريب قادراً على الخروج من بيته، قادراً على القراءة... هذا فظيع!

تناولوا كأساً أخيرة. ووزع باولو ريجر صدقات على المتسولين والمتشردين الذين كانوا يعرضون أوراقهم أمام الكاتدرائية، قابعين على الأرض، وهي أنعم سرير يستطيعون نيله كي يرتاح عليه جسدهم الموجَع...

هنأ جيرونيمو صديقه باولو على عمله الخيري هذا وقال:

ـ وأنت من حارب الصدقة على الدوام، أليس كذلك؟ إنك ستزور يوماً ما نوسو سينيور دى بونفيم...(*) فردّ بلهجة إنشائية:

(*) نوسوسينيور دى بونفيم: رب النهاية الطيبة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ هؤلاء الناس يعانون المأساة الحقيقية الوحيدة... مأساة الجوع.

ـ كلاّ على الإطلاق. إن مأساتنا نحن أكبر بكثير؛ قالها خوسيه لوبيز مقاطعاً. إن جوعنا هو جوع الروح.

وأطرق باولو ريجر حالماً بماريا دى لورد.

في صباح اليوم التالي أحسّ بمتعة كبيرة في ملاعبة الصيصان وفي إلقاء الحَب للدجاج داخل الحديقة... إنها لطيّبة الحياة البرجوازية العائلية...

وماذا لو تزوجّ؟ لا بدّ أن يرزق صبياً ويعلّمه أن السعادة تكمن في الحب...

وقعد في الكرسي الهزاز وراح يتأمل. فكّر بماريا دى لورد، بالأولاد، ببيدرو تيسيانو. ثم نهض قائلاً في نفسه:

ـ سينتهي به الأمر بالانتحار...

واحتك بساقيه هرّ، فرفسه، وسرعان ما ندم فأخذه بين ذراعيه واتجه نحو النافذة وهو يحدثه عن شكوكه.

أما الهر، فكان حذراً جداً، إذ أنه آثر أن لا يسدي نصائح... فرفع رأسه الارستقراطي وتفرس في وجهه ثم لحس قائمتيه. يا له من هرّ حكيم وعميق إذ أنه غسل يديه من مشكلة باولو ريجر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- ٨ -

ريكاردو براس يجب أن يحضر قدّاس الساعة العاشرة يوم الأحد في الكاتدرائية. فهو ينهض باكراً، ويرتدي أفخر ثيابه لكي يضيع صبيحته، على حد قول خوسيه لوبيز. ويصل إلى الكنيسة عند انتهاء القدّاس، فيظل خارجاً، قرب الباب، يستعرض الفتيات الأنيقات اللواتي جثن يعفرن ركبهن على بلاط المكان المقدس.

في أحد الأيام، كان يمتع بصره بمنظر ساقين رشيقتين لإحدى الفتيات، فإذا بأحدهم يشده من ذراعه، فالتفت:

ـ آه، هذا أنت يا أنطونيو؟

وتعانق الرجلان. كان أنطونيو مانديس، زميل له، وهو شاب ثري وابن عائلة كريمة، وكان يعرف الأرض كلها.

ـ أنطونيو، أنت تعرف جميع هؤلاء البنات، فهل تعرف من هي تلك التي ترتدي الأسود؟

ـ بالتأكيد؛ إنها فتاة فقيرة... أعني أنها ليست ثرية. لكنها أنيقة جداً. أتريد أن أعرفك عليها؟

ـ أودّ ذلك، أجل.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

توجه الاثنان صوب الفتاة ـ حسنة الهندام كثيراً، شاحبة اللون، عيناها ناعستان، كسولتان. إنها حقاً ليست جميلة، ولكنها جذابة لا أكثر.

ـ أوه، هل أنت بخير يا دكتور أنطونيو؟

ـ أجل بخير. وأنت يا دونا مرسيدس؟

ـ بين بين...

ـ وأنت يا آنسة روث، كيف حالك؟

ـ لا بأس شكراً.

ـ أودّ أن أقدّم لكما أعز صديق عليّ، الدكتور ريكاردو براس. لقد تخرجنا معاً من الجامعة مؤخراً. وهو شاعر أيضاً.

ـ أوه، كلاّ، يا سيدتيّ، أنا صحافي فقط...

كانت روث على علم بذلك. إنه يعمل في جريدة "إيستادو دى باهيا"، أليس كذلك؟ فهي كانت تراه على الدوام!

ـ أين يا آنسة؟

فسارعت دونا مرسيدس، شارحة:

ـ نحن والدكتور بيدرو تيسيانو جيران...

ـ آه، مديرنا العزيز...

ـ ... وأنت تأتي إليه دون انقطاع.

ـ هذا صحيح. كان تيسيانو صديقاً كبيراً لي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

استأذن أنطونيو مانديس ومضى. وبقي ريكاردو، إنه، كما شاءت الصدفة، كان يزمع أن يتناول طعام الغداء مع تيسيانو. ورافق ريكاردو السيدتين حتى الترامواي. فصعدوا وظلوا مسترسلين في الحديث، بهدوء، مما كان يملأ قلبه غبطة. كانت روث تعرف مجموعته الشعرية.

- إذاً لديك صورة بائسة عني.

- كلا. على عكس ذلك، أنا أحب هذه المجموعة كثيراً. لكن أمي لا تحب إحدى رباعياتك.

- أيها؟

- تلك التي عنوانها "باردة". إن فيها شيئاً من الجسارة.

ـ آه، أجل!... ؟"باردة"... إن أصحابي هم الذين أصروا على نشرها...

راح ريكاردو يفكر بأشعاره. وهو يعتبر "باردة" أجمل واحدة بين رباعياته. و لم يزعج والدة روث إلاّ هذه بالضبط...

عند باب البيت، قالتا له أن "يأتي متى شاء، للتحدث معاً".

- لكنني قد أسرف في استجابة هذه الدعوة....

- سيكون كل السرور لنا...

دخل ريكاردو إلى عند تيسيانو الذي كان يشغل آنذاك غرفة منفردة في منزل عائلة. لكنه كان مضطراً أن يرحل من هناك ويسكن مع ابنه المتزوج،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إذ أن بصره شحّ كثيراً... وكانت الأوجاع تجتاح جسده كله. سيمضي ليموت عند ابنه، فهو بذلك، على الأقل، لن يموت بين الغرباء...

ـ لقد جئت لأتناول طعام الغداء معك، يا تيسيانو.

ـ حيث يوجد طعام لواحد يوجد طعام لاثنين...

***

يمكن اعتبار جريدة "إيستادو دى باهيا" ناجحة... لكنه نجاح "مقلوب". فهي نجحت عن طريق الكراهية. كان الجميع يشترون "إيستادو دى باهيا" ليعرفوا من هو كبش المحرقة اليوم. إنها ليست جريدة تعنى بالفضائح، ولكنها تقول الحقيقة، وهي جريئة. والجريدة التي تقول الحقيقة، في باهيا، إنما هي جريدة تقول أشياء أدهى من الجريدة الأكثر دناءة في العالم.

لولا تلك المشاحنات الدائمة بين بيدرو وتيسيانو و أ. غوميز، لكان كل شيء على ما يرام. لكن مجادلات عنيفة تنشب دائماً بين المديرين. فغوميز، المهووس بجمع المال، يريد فرض رقابة على مقالات تيسيانو، وهذا لا يرضى بذلك تحت أية ذريعة. وتمتد المجادلات بينهما ساعات طويلة. إن غوميز لا يوافق على مهاجمة شخصيات تتبرع بالمال للجريدة.

ـ أنا لا أشارك في جريدة تمارس الابتزاز، يقول تيسيانو.

ـ هذا ليس ابتزازاً، هذه سياسة، يا رعاك الله! ويروح غوميز يمزق رئتيه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالصراخ.

فكان خوسيه لوبيز يصلح الأمور، فيصدر المقال دائماً مخففاً نوعاً ما. ويرضى تيسيانو بذلك.

ويظل غوميز يغمغم:

ـ إذا سرنا على هذا النحو فلن نجمع مالاً أبداً...

كان لا يفكر إلاّ بالمال، بالإثراء. على أي حال، ألم يكن هذا ما يفعله هذا السافل؟ إنه الآن يسكن في بيت على الجادة، ويدخن السيكار الغالي الثمن، (يقال ولكن لا أحد يصدق) ويرتاد حتى بيوت الدعارة...

ويستسلم للحلم، وهو ينظر إلى الدخان المنبعث من سيكاره، ثم يقسم على أنه عندما "يصبح في حوزته ألفا كونتوس(*) سيغدو سعيداً".

***

أمضى باولو ريجر عدة أيام سدى أمام تلك الواجهة العالية في لاديرا بيلورينيو. فهو لم يوفق قط في رؤية ماريا دى لورد. وكانت صورتها قد أخذت تغيب تدريجياً عن باله حينما رآها خارجة من البيت بينما كان نازلاً بالسيارة (فيما مضى كان يذهب ماشياً، مطمئناً) أصيل أحد الأيام. فأوقف

(*) الكونتو اصطلاح لورقة من فئة الألف كروزيرو والكروزيرو يساوي ألف ريس أو ريال من العملة القديمة. وقد استبدل الكروزيرو بالكروزادو.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السيارة، وقفز إلى الأرض. ونظر إليها مبتسماً.

ـ ظننت أني لن أراك أبداً.

ـ وأنا أيضاً. لولا هذه الصدفة التي جعلتك تمر الآن... إلى أين ذاهب؟

ـ لست أقصد أي مكان. كنت أمر عمداً لعلي أصادفك. لقد أتيت إلى هنا أياماً متوالية. و لم أفلح في رؤيتك. ألا تظهرين على النافذة...

ـ حيث أسكن لا توجد نافذة، يا سيدي...

ـ لا تقولي سيدي. هذه كلمة رسمية جداً...

ـ حسناً. حيث أسكن لا توجد نوافذ. إنها تتخيتة. أنا فقيرة جداً... وأنت.. يبدو عليك أنك ثري جداً. سيارة جميلة! لن تستطيع أبداً أن تحب فتاة على شاكلتي. وأنا التي كنت أعتقد أنك مستخدم في التجارة ربما أكون سعيدة معه!...

ـ لا تقولي هذا الكلام... ما اسمك؟

ـ ماريا دى لورد سامبايو. وفي بيتي، أدعى لوردينيا. وأنت، ما اسمك؟

ـ باولو ريجر.

واهتمت بما يعمل. فهي تحب المحامين كثيراً. لكن الصحافيين لا يجذبونها. إن دونا هيلانة (وهي خبيرة بهذه الأمور) تقول إن الصحافيين متقلبون وشاءت ماريا أن تعرف بماذا يشتغل أكثر، بالمحاماة أم بالصحافة؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ في الحقيقة أنا صحافي أكثر مني محام. فأنا لا أمارس مهنة المحاماة. لكني صحافي مختلف عما تعتقدين.

ـ متقلب؟

ـ كلاّ. عندما أحب، أحب حقاً...

وراح الاثنان يلتقيان كل يوم. كان هو يعشق سذاجتها، وكآبتها، والحب الذي تكنه له، وذاك الحنان الذي تغمره به. فهو لم يسبق له أن أحبه أحد بهذا الشكل. وراح يعتقد بأن السعادة هي في الحب...

***

رحلت العائلة البروتستانية التي كانت تقيم في الطابق الرابع. ومنذ صباح اليوم التالي جاءت امرأة إيطالية واستأجرت الطابق بكامله لكي تفتح نزلاً. وعرف باولو ريجر بالأمر. فقد أخبرته ماريا دى لورد. خطرت في باله فكرة. وبعد أن عادا من النزهة الاعتيادية، وتوقفا عند أسفل الدرج، اجتذبها إليه وقال:

ـ لكِ عندي مفاجأة غداً، يا حبيبتي.

وتلاصق خداهما. وقبلها طويلاً.

ـ أوه! باولو...

ـ عفواً، يا خطيبتي الحلوة...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في الدرج كانت جورجينا تضحك، سعيدة لكونها ضبطت ماريا بالجرم المشهود. ولم تمضِ خمس دقائق حتى كان جميع الجيران يعرفون أن ماريا دى لورد تفعل كل يوم، في أسفل الدرج، أشياء منافية للحشمة مع الدكتور باولو، ذاك الشاب صاحب السيارة والذي يكتب في الجريدة.

- الفتيات المتظاهرات بالتقوى هن الأخبث؛ قالتها دونا هيلانة.

كانت دونا بومبينيا تسمع كل شيء من غرفتها الكئيبة، وهي قلقة، وقد انتابتها رغبة جامحة في تكذيبهن، في قتلهن.

وحينما صعدت لوردينيا، نظر إليها جميع ساكني الطابق نظرة استهزاء، لكنها عبرت دون أن تتأثر بشيء.

سألتها عرّابتها. كذب! إنها نميمة من تلك الـ جورجينا! مع أنه قبّلها في ذلك اليوم، لكنه دعاها "خطيبته". فهو يزمع أن يطلب يدها. وارتمت بين ذراعي عرّابتها، وهي تبكي.

***

كان ريكاردو براس كثير الانشغال. فهو نادراً ما كان يظهر. لقد فتح في مركز تحرير "إيستادو دى باهيا" مكتب محاماة، وراح يمضي أيامه في انتظار أول زبون. وهو يريد أن يتزوج. كان يحب روث وهي تحبه. لكن هزال مداخيله يمنعه من التفكير بالزواج. فهو يتقاضى خمسماية ألف ريس من البلدية، ومايتي ألف ريس من "إيستادو دى باهيا"، وهذا لا يكفي لتأمين العيش. وفوق ذلك فهو لا ينوي أن يظل كويتباً طوال حياته. فكان يشحذ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دماغه ليجد الوسيلة التي تمكنه من كسب كثير من المال.

ـ آه، لو كانت لي نفس غوميز اللصوصية!

ـ إنه كلب! فليخط بغير هذه المسلّة.

قال له والد روث أن يعود ويطلب يد الفتاة متى أصبح قادراً على إعالة زوجة. صحيح أنه يستحسنه. ولكن يجب أن يستطيع إعالتها، أما أن يدعها تموت جوعاً، فلا!

وراح ريكاردو ينتف شعره يأساً:

ـ كانت السعادة في يدنا، وها هي تهرب... يا لظلم القدر!

أما بيدرو تيسيانو فكان يكيل اللعنات:

ـ أسأل السماء أن لا تجد المال. فبذلك فقط تتحاشى أن تكون تعيساً... الزواج لن يأتيك بالسعادة يا ريكاردو...

ـ تعيس، أنا؟ أنا أعرف نفسي جيداً يا بيدرو.

ـ لكني أعرفك أكثر...

***

الانشغال يكاد يستحوذ عليهم كلياً. فريكاردو قد كرس نفسه تماماً لروث. وباولو ريجر لا يفكر إلاّ بماريا دى لورد. وخوسيه لوبيز مسترسل في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المطالعة أكثر فأكثر، غارق في كتبه الفلسفية، يحيا صراعاً شديداً. فهو متردد بين النزعة الغريزية والنزعة الروحانية. يبحث عن أصحابه لكي يتناقش وإياهم، ويتخلص من هذا العبء، لكن قلما يظهر هؤلاء. أما بيدرو تيسيانو فكان لا يطاق. وعندما حدثه لوبيز عن المسألة، أجابه، مسترسلاً في **المجون**:

ـ الروحانيون لا يعرفون الروح، والماديون لا يعرفون المادة. الشك هو الموقف الوحيد. أترى كل هذا الارتباك العصري. فأنا، المتشكك، انخرط فيه، أحسّه، لكنه مع ذلك لا يقنعني.

ـ ولكن ألست تشعر بالقلق؟ ألا تحس بأن شيئاً ما ينقصك؟

ـ أنا أشعر بالقلق. وأحس بالشك. ولكني خلافاً لك، لا أبحث عن حل لهذا القلق وهذا الشك. بل إني، على العكس، أجعل منهما غاية حياتي. إن سعادتي تكمن فيهما. ويوم أكف عن الشك، أو يوم يصير عندي يقين، سيكون من المستحيل عليّ أن أحيا.

ـ هذا كله قديم، يا تيسيانو. إن جيلك قد ألّه الشك. أما جيلي أنا فيحاربه.

ـ هذا يعنى ببساطة أن جيلي متفوق على جيلك.

ـ موضوع جيلَينا هو نفسه موضوع أدب ما قبل الحرب وأدب ما بعد الحرب... الأول أدب إنشاء والثاني أدب أفكار...

ـ ليس هذا ما في الأمر. ولكن هب أنه كذلك، فأنا مع أدب ما قبل الحرب. أنا، عندما أقرأ مقالاً، لا ابغي معرفة ما إذا كان لدى كاتبه أفكار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جيدة أو لا، ما إذا كان مفيداً أو لا. ما أبغي معرفته هو ما إذا كان كاتباً أو لا، ما إذا كان يكتب جيداً أو لا. في الحقيقة إن الأدب الأناطولي(*) كانت لديه أفكار أيضاً. وكان يعطي حلولاً. كان يوصي بالشك الدائم. فهل هذا حل أم لا؟ إنه كان يضع الجمال فوق كل شيء. أنت تتقبل الله لأن الله نافع. أما نحن فكنا ننكره لأننا كنا نجد أنه لا يستجيب لمثلنا الأعلى الجمالي.

ـ لقد كنتم في منتهى الأنانية. كنتم تعبدون الأنانية أحياناً.

ـ وأنتم تمارسون الأنانية بأحطّ أشكالها: المغالاة في الإنسانية. نحن كنا نريد ارستقراطية الموهبة، أرستقراطية الروح. وأنتم اليوم تدافعون عن ارستقراطية القوة. أنتم مسؤولون عن إفلاس العقل... الثقافة وحدها ذات قيمة ما، لأنها وحدها النافعة.

ـ لكنكم فشلتم.

ـ أجل لأن كل انتصار في الحياة هو فشل في الفن...

ـ زمن المغالطات انتهى يا تيسيانو.

ـ صحيح. وجاء زمن الاستشهادات...



(*) نسبة إلى أناطول فرانس الذي ورد ذكره سابقاً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أفاقت ماريا دى لورد وهي تغني. وكان صوتها يرن، نقياً، في التتخيتة كلها. قربت رأسها من الكوة الصغيرة التي تطل على السطح المجاور، فرأت على نافذة الطابق الرابع شاباً غارقاً في القراءة. وعرفته.

ـ باولو!

ـ لوردينيا! أما قلت لك إني أعد لك مفاجأة؟ لقد استأجرت غرفة هنا لأكون أكثر قرباً إليك...

عند العشية جاء إلى الدرج ليتحدث وإياها. كانت الظلمة تلف المكان. قبلها كثيراً. وانزلقت يده تحت قميصها ولامست نهدها. لم تمانع، وكانت شاحبة جداً، وتعانقا.

ـ باولو...

ـ لورديني...

كانت الحياة تسير على هذا المنوال. وكانت علاقة الغرام الفاضحة بين الشاب الغني وماريا دى لورد حديث الحي كله. قالت جورجينا إنها شاهدت في الدرج أفعالاً منافية للآداب لا توصف. وراحت تخبر صديقاتها أشياء مذهلة.

وكيف عرفت بهذه الأشياء؟

لقد كانت تكمن له هي والأخريات وراء باب التتخيتة وتراقبه من هناك. فكان يصل، يجلسها على ركبتيه، ويقبلها، ويعجن نهديها. وكن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتساءلن عما إذا كانت لا تزال عذراء.

وتغمغم دونا هيلانة:

- كأنه لا يوجد مكان آخر... آه من المتظاهرات بالعفـة... المتظـاهرات بالعفة.

لم تكن ماريا دى لورد تعير هذه الأقوال اهتماماً، ولا العرابة.

ولأجل إسكات جميع هؤلاء الناس، طلب باولو ريجر الزواج من ماريا.

أما هـي، فقدمـت الشـوكولا إلى جميـع سـكان التنخيتـة، وهـي تتـذوق الانتقام، وتتلذّذ بسماع عبارات التهاني المفعمة بالحسد.

إلا أنه في الليل، عندما أوت إلى فراشها، سمعتها عرابتها تبكي كثيراً. فلم تسألـها عن السبب. إنها دموع السعادة طبعاً. لكن ماريا دى لورد وحدهـا كانت تعرف لماذا تبكي. وهي لم تجرؤ علـى أن تخـبر خطيبهـا بـذاك الشـيء الذي يعذبها...

- ٩ -

استعادت ماريا دى لـورد فيلـم حياتهـا في عـرض خـاص بهـا وحدهـا. وشاهدت نفسها يوم كانت تعاشر أوسفالدو. كانت لم تبلغ الخامسة عشرة بعد، صبية صغيرة ليس لديها عن الحياة سوى الصورة الغامضة التي تكتسـبها الفتاة على مقعـد المدرسـة. كان أوسفالـدو قد بلـغ الثامنـة عشرة، وكان في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوقت ذاته قد دخل بيت دعارة لأول مرة، فعرف ما هي لذة الجسد. إلا أنه عرف ذلك بسرعة، ودونما تفكير. فأخذت خطوبته مع ماريا دى لورد (خطوبة أولاد) تسير في منحى آخر. وكانت هي، على سذاجتها، تسلس له قيادها.

في أحد الأيام (يؤلمها أن تتذكر يوم سقوطها) جاء بها إلى غرفته. وخرجت من الغرفة سعيدة. ظلت زماناً طويلاً تجهل معنى ما جرى. وهي لم تعلم إلاّ حينما راحت لتسكن الـ بيلورينيو، ومن أحاديث هيلانة وجورجينا، أن الفتاة التي تستسلم لرجل لا يعود بإمكانها أن تتزوج، لأن الشرائع تعتبر أن كل شرف العالم يكمن في غشاء البكارة...

احتفظت بسرها في صمت. وعندما باح لها باولو ريجر بحبه أخذت تتألم. لم تكن تجرؤ على البوح له بسرها الرهيب. وهو، الذي كان شديد الغيرة... حتى من أوسفالدو الذي مات (بعد أن أتلف رئتيه في بيوت الدعارة) كان يغار. فما عساه يفعل متى عرف كل الحقيقة؟ لكنها ستخبره كل شيء. إنه لا بدّ أن يعلم بالأمر عاجلاً أو آجلاً... فلماذا تخفيه عنه؟ أما ريجر فلم يجد سبيلاً إلى معرفة سبب كآبة ماريا دى لورد.

لم يصدق أحد من أصدقائه خبر خطوبته. حتى ولا ريكاردو براس... إنها مزحة من باولو. إنه يخدعهم... مخطوب، هو؟ هذا كلام!.

ـ ألا تجدون هذا مضحكاً؟ ـ وينفجر غوميز ضاحكاً.

على أن باولو ريجر قد عقد خطوبته. ولا يريد أن يتأخر الزواج. كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مزمعاً أن يتزوج في الحالْ كي لا يدع السعادة تفلت منه. وبعد حفلة الزواج يمضي ردحاً من الوقت في أوروبا... كلاَّ، ليس في أوروبا. إنه لـن يعـود إلى أوروبا حيث اكتسب النزعة التشككية. فهو، بعـد أن حـل مشـكلة حياتـه، ووجد غايته، لن يعود إلى بؤرة اللامبالين تلك، بؤرة أهل السـأم... بـل إنـه سيرحل إلى أراضيه. ولن ينتهي شهر العسل عنده أبداً... وبعـد ذلـك؟ بعـد ذلك السعادة كل يوم... وبعد ذلك؟ تلك السعادة إياها.

ألن يشبع باولو ريجر من هذه الغبطة البيتية؟ قالـها بيـدرو تيسـيانو وهـو يرشف القهوة جرعات صغيرة.

ـ كلا يا تيسيانو. أنا حتى اليوم لم أفعل شيئاً سوى البحث عن السعادة. وها قد وجدتها، فهل سأملّها؟

ـ لكـن، هـل عقـدت خطوبتـك حقـاً؟ قالـها ريكـاردو بـراس بلهجـة ارتيابية.

ـ أجل، يا ريكاردو منذ بضعة أيام.

ـ ومن هي الخطيبة؟

ـ فتاة صادفتها في الحياة. فقيرة جداً، لكنها طيبة جداً.

فقال خوسيه لوبيز موضحاً:

ـ إنها خلاسية صغيرة، ومن عائلة مجهولـة. لم أكـن قـط أظـن أن بـاولو يمكن أن ينزل إلى هذه الدرجة من الحمق...

ـ إسمع يا خوسيه، أنا أريد أن أقول لك شيئاً. إذا تكلمت بهـذه الطريقـة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مرة أخرى عن خطيبتي، فسأقطع كل علاقة لي معك.

وهم باولو بالنهوض وقد بدت عليه الجدية والامتعاض. لكن لوبيز أقعده قائلاً:

- ليكن لك ما تشاء يا صاحبي. لن نتكلم بعد الآن عن خطيبتك الخارقة الامتياز...

وهمّ ريكاردو براس بالنهوض بدوره.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- لاستقبال رجل سياسي بارز من بلدي يصل اليوم. إنه حيوان كامل! وهو، فوق ذلك، ينتمي إلى المعارضة. إنه يتمتع بنفوذ في بعض المناطق، ويمكنه أن يجد لي شيئاً. فأنا أيضاً أريد أن أتزوج...

***

لكل مومس مأساة، يا جيرونيمو. أتريد أن ترى؟

ونادى بيدرو تيسيانو الامرأة التي كانت تعبر من هناك.

- أخبرينا يا ابنتي، أنا وهذا الصديق الذي هو "آخر رومنطيقي"، كيف وصلت إلى هذه الحياة، هذه الحياة الرهيبة التي تقول النساء المتزوجات إنها حياة سهلة...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم تتردّد الامرأة. وراحت تحكي قصتها، وهي مطرقة، وأصابعها تعرك طرف قميصها الفضفاض، ويكاد يظهر عليها الخجل. إنها لجميلة هذه الامرأة! عينان واسعتان ذاهلتان، وفم صغير تتراقص عليه ابتسامة تخالها دعوة عفوية. ليس فيها من الارستقراطية شيء، بل إنها مثال الفلاّحة الحلوة.

على غرار الكثير من الفتيات... كانت تعيش مع أهلها في نازاريه. كانت تشتغل بالخياطة، وتكسب مالاً. وفي أحد الأيام كان رجل ثري وأنيق يتنزه في البلدة فشاهدها ولوّح لها بالزواج، والبيت الجميل، والسيارات. وكانت هي في ذلك الوقت لا تزال تصدّق الرجال. بعد ذلك، تخلّى الرجل عنها، فشردت، وأنكرتها أسرتها. فجاءت إلى باهيا. هذه هي حكايتها، حكاية الكثيرات من مثيلاتها.

- ورحتِ تعيشين مأساة المومسات، اللواتي وُلدن كي يكنّ أمهات لعائلات. على كل حال لقد نجوتِ يا ابنتي، من مأساة أفظع بكثير، هي مأساة أن تموتي عذراء...

شدّ جيرونيمو قبضتيه. واغتاظ من تيسيانو. يحلو لهذا الرجل أن يهزأ من شقاء الآخرين. يا له من بائس...

وابتعد بيدرو تيسيانو متمهلاً. وظلت الفتاة مسمّرة في مكانها، غارقة في ذكرياتها. كم هي حلوة! وناولها جيرونيمو عشرين ألف ريس، خفية عن تيسيانو.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ شكراً. إنك إنسان طيب جداً...

***

كان البار يغص بالزبائن. فالبرجوازيون الصالحون جالسون إلى الموائد هنا وهناك يحتسون كؤوس الجعة بلذة ظاهرة. وكان تيسيانو يتكلم بصوت عال، تأففت منه جماعة من السياسيين. كان يتلو أبياتاً هجائية هي بمثابة رسوم كاريكاتورية لأصحاب المواهب الكبار في باهيا. ودخل البار رجل سكران. وكان هناك ذريعة لتبرير عدم إعطائه صدقة، فهو كان يريد أن يشرب الـ "كاشاسا"(*)...

فناداه تيسيانو، وأعطاه قطعة من النقود، قائلاً:

ـ خذ ايها البائس. هذا نصف ما في جيبي.

ـ أنا لن أشرب، يا سيدي، لا.

ـ إصمت أيها الأبله! أنا أريدك أن تشرب... يجب عليك أن تشرب. أنت تحب الكحول، أليس كذلك؟ إذن اشرب. على المرء دائماً أن يشبع غرائزه... وأنا أحب السكارى لأنهم ضد الأعراف.

وخرج المتشرد متعثراً في مشيته. دون أن يفهم شيئاً.

(*) نوع من الخمرة يقطر من العسل أو من قصب السكر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- واحتج لوبيز قائلاً:

- إذاً على المرء أن يكون عبداً لغريزته؟

- أتفضل أن تكون عبداً للأعراف؟

بات بيدرو تيسيانو يسكن الآن مع ابنه. وقد تدهور بصره كثيراً، وصار يحس بوهن عام. فالموت يقترب. لكن روح تيسيانو لم تتغير. فهو ما زال ذاك الصحافي المكافح، والهجّاء اللاذع.

إن ابنه لا يريد له الاستمرار في الكتابة. فعليه أن يكف عن نمط العيش هذا، وأن يلازم الدار، ولا يخرج، وأن يتخلّى عن الثرثرات اليومية. فلماذا هو يثابر على كتابة مقال كل يوم وحتى ملاحظات؟ والأنكى أن يتقاضى عنها أجراً بخساً... إن غوميز يسرقهم. فهو يدفع لهم جميعاً أجراً بخساً، وهم الذين يدعمونه كأصدقاء بينما هو يجمع المال.

فيقول تيسيانو شاكياً:

- يوم كنت في الثامنة عشرة من عمري كان والدي يضايقني بسبب ميولي الأدبية. والآن جاء دور ابني...

وانضم إليهم ريكاردو براس، بعد أن رافق إلى الباخرة ذاك السياسي الشهير من أبناء منطقته. لقد رحل الرجل مغتبطاً... ستنشر له الـ "إيستادو دى باهيا" رسماً مع تعليق؛ إنه لنجاح!

- لقد وعدني الرجل بكل شيء! ستكون روث بهية...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ أنت وريجر أبلهان! هيا، تزوجا. إغرقا في الرداءة التامة. لنكن صادقين، أنتما تتزوجان لكي يضاجع كل واحد منكما خطيبته. وبعد أن ترتوي الشهوة الجسدية...

ـ لكنك تخطىء تماماً إذا كنت تظن أننا نتزوج لكي يتمكن كل منا أن يضاجع خطيبته. نحن نتزوج لأننا بحاجة إلى رقة وحنان. نحن نطلب الجنس والقلب...

ـ ستشبعان من القلب قبل أن تشبعا من الجنس. لقد تزوجت قبلكما...

ـ كلا! نحن نشعر بأن هذا الحب هو غايتنا.

وضرب خوسيه لوبيز جبينه بيده. وتذكر شيئاً حمله ليريه إياه. ثم راح يتلو، مصطنعاً الصوت المناسب.

"**الآنسة عاطفة** ـ أيتها الآنسة عاطفة، أنا أحبك، أحبك كثيراً. أنا أعبدك. لماذا تتحاشى عيناك عينيّ عندما نتكلم؟ ما سبب هذه الكآبة التي ترخي على وجنتيك وشاحاً من الشحوب بعض الأحيان؟ لماذا لا تخبريني كل شيء، لا تفتحين لي قلبك تماماً، أيتها الآنسة عاطفة؟ أنت تعلمين كم أحبك...".

ـ من صاحب هذه اللحمة من الحماقات؟

ـ أشياء مبتذلة...

ـ إنها زاوية الغد.

ـ أنت الذي كتب هذا يا ريكاردو؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ كلاّ، إنه ريجر. لقد طلب مني أن يكتب زاوية الغد.

ـ باولو ريجر، ذاك الهجّاء... ذاك العنيف...

ـ أجل باولو ريجر، الذي سبق أن نظم، في زمن آخر، "قصيدة الخلاسية المجهولة"...

ـ إنه يثير الشفقة!

ـ لقد ضاع، هذا الشاب...

***

عندما قرأت ماريا دى لورد زاوية باولو ظلت متكئة إلى الطاولة، وعيناها مسمّرتان إلى الجريدة تدمعان.

ـ سأحكي له كل شيء. لا مفرّ من ذلك. أنا أعرف أنه لن يغفر لي، ومع ذلك سأخبره. يجب أن أخبره.

وسرعان ما كانت تفقد جرأتها. إنه شديد الغيرة. فكان يكفي أن تنظر إلى رجل آخر، دون انتباه، حتى يحتج. وهي تحبه حباً جماً. رباه! وإذا لم يغفر لها (إنه يغار غيرة شديدة من ماضيها!) فإنها ستموت حزناً. إنها لن تستطيع أن تتحمل ذلك.

ـ بماذا تفكرين، يا لوردينيا؟

ـ أوه، هذه أنت يا جارديلينيا؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إحدى أخوات لوردينيا. (لم تتذكرها قط قبل أن يخطبها باولو ريجر، الذي هو، بعد كل حساب، شاب ثري. أما الآن فهي تثابر على زيارتها) إنها على وشك إنهاء دروسها كمعلمة. وهي معجبة بكتب ماريا دى لورد، والمجلات المصورة.

استغربت جارديلينا أن لا يتمنى باولو ريجر أن تغادر شقيقتها هذا المكان الموبوء.

ـ لقد اراد. أراد أن يكون لنا بيت يخصنا. لكن ديندينيا، الحريصة على التقاليد لم تقبل.

ـ هذا طبيعي. ماذا كان قال الناس لو حصل ذلك؟ هذا يصح عند الزواج؛ أما الآن فأنا من تعيل هذا البيت. على أي حال إنه يعترف بأني على حق.

ـ ومتى سيتم هذا الزواج؟

ـ خلال الشهرين القادمين. باولو يريد أن يكون زواجه مرتجلاً، بلا احتفال ودون إعلام أحد...

ـ يا له من رجل غريب الأطوار! وبعد ذلك، أين تنويان قضاء شهر العسل؟

ـ لا نعرف. ربما في باريس، وربما في الريف...

ـ إسمحي لي...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لثم باولو ريجر يد لوردينيا، ويد بومبينيا، وسلّم على جارديلينا.

ـ كيف حالك يا دكتور باولو؟

ـ جيدة، وأنت؟

كان باولو لا يطيق شقيقة ماريا دى لورد. كان يقول إن لها سحنة دسّاسة، وأنف ببغاء. والأشخاص الذين يشبه أنفهم أنف الببغاء هم أناس لا يمكن الوثوق بهم. كان باولو يشرح هذا لخطيبته.

ـ كنا نتحدث عن زواجكما، يا دكتور، فمتى سيكون ذلك؟

ـ يوما من الأيام. ستعرفين يوم سنتزوج.

ـ ألن تدعواني إلى حفلة الزفاف؟

ـ لا، لسبب وحيد هو أنه لن يكون هناك حفلة زفاف. فبعد عقد القران سنركب الباخرة تواً.

ـ أي رجل أنت، يا إلهي! وأين ستذهبان بعد ذلك؟

ـ إلى الولايات المتحدة... للسياحة. أنا لا أعرف الولايات المتحدة. سأغتنم الفرصة.

ـ أنا أفضل أوروبا، قالت جارديلينا بغنج. وأنت يا لوردينيا؟

ـ أنا؟ كما يريد باولو.

وتلاقت أعينهما. كان في عينيها حزن عميق. أما هو، فكان في عينيه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سرور كبير...

كم أن السعادة بعيدة... كم أن السعادة قريبة...

***

ـ أنا أريد أن أنام؛ قالها ريكاردو براس.

ـ وأنا كذلك، أجابه خوسيه لوبيز وهو ينهض متثائباً، واضعاً يده على فمه المنفتح.

كان غوميز قد غادر المكان من قبل. فهو كان يزمع أن يسافر في الغد إلى السرتون، فعاد إلى البيت باكراً.

وعرض عليه ريجر أن ينقله بسيارته.

ـ وأنت يا جيرونيمو، ألا تأتي معنا؟

ـ لا. أنا أبقى هنا. سأقوم اليوم بجولة حج في الشوارع... أنا عاطفي...

ابتعدت السيارة. وعندما غابت في المنعطف راح جيرونيمو يسير في الشارع على غير هدى. أخذ يستعرض حياته قبل وبعد التقائه بتيسيانو. كم كانت سعيدة قبل ذاك اللقاء! كان يتمتع بطيب العيش الذي يتذوقه من لا مشاكل عندهم. وبعده، أطاح هذا الرجل الغريب بجميع أصنامه: الله، الوطن، الحب. وهو لا يدري إن كان يجب أن يشكر بيدرو تيسيانو. إنه، في الحقيقة، أخذ يشعر بالتعاسة. وكانت تنهشه رغبة كبيرة في العودة إلى حياته السابقة. غير أنه كان يخشى أن يُعتبر رديئاً... ونادته امرأة من النافذة،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالتفت ووقع بصره على المومس التي رآها بعد الظهر. ودخل.

ـ ألم تتذكرني؟ أنا رأيتك بالكاد، ولكني تذكرتك على الفور. وقادته نحو الغرفة.

ودار بينهما الحديث. إنها لا تطيق هذه الحياة. الجميع يعاملها معاملة سيئة. ثم إنها لم تتعلم أن تبتسم لمثل هذا العدد الكبير من الرجال. ولذلك فهي لا تكسب ما يكفي للعيش...

وملأ قلب جيرونيمو سواريس شعور كبير بالشفقة، شعور إنساني قوي. فنسي أصحابه، وبيدرو تيسيانو ومزحاته، وكل شيء. نسي أن "الشفقة على الآخرين هي عدم الشفقة على الذات". ونسي أنه "لا يجوز أن يتألم الإنسان لأجل غيره ولا أن يتألم لألمه. فإن ألمه هو يكفيه".

كانت البنت تبكي، ورأسها على كتفه.

أعطاها مائة ألف ريس وطلب منها ـ "إذا سمحت!" ـ أن لا تضاجع رجلاً تلك الليلة. واستغربت هي عدم قبوله البقاء، وحتى عدم ذهابه إلى السرير معها.

ـ سأعود غداً.

ـ إنك طيب جداً...

(طيب إلى حد جعلها تخجل من أن تقبله على فمه. فهي تفعل هذا مع جميع الرجال. فلثمت يديه. وكان هو الذي قبّل شفتيها طويلاً).

كانت السماء ملأى بالنجوم. والقمر، الضخم جداً، كان يبدو كأنه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ممثلة مسنة بين ممثلات شابات.

وشعر جيرونيمو بأنه سعيد. ففي تلك الليلة ابتدأت عودته إلى حياته السابقة. لقد أخذ يتحرر من تيسيانو. وإذا أفلح في ذلك، فإنه سيعود إلى السعادة الكاملة. لقد كان يحوز كل الأسباب لأجل ذلك. فهو طيب وغبي...

- ١٠ -

أحدث الإعلان فضيحة. وبات حديث المدينة كلها. كان هناك رجال وقورون، وموظفون رُصناء (هناك أشخاص يتوقف نفوذهم على القبة المنشّاة التي يلبسونها) يستنكرون بصوت عالٍ هذه الإهانة التي أصابت جميع عباقرة البرازيل.

وشاء الطلبة تنظيم تظاهرة معادية لجريدة "إيستادو دى باهيا". لكنهم عدلوا عن ذلك لعلمهم بأنهم سيُستقبلون بالرصاص (قلّد جيرونيمو، ذو الروح الحربية، فلوريانو بيكسوتو). إن أمل الوطن البرازيلي، الطلبة، لا يهاجم إلاّ التعساء غير القادرين على الرّد. وأثار الإعلان ضجة قوية إلى حد جعل أحد النقّاد يكتب مقالة للتعليق عليه. فهو يجده رائعاً. وأمام صوت العاصمة ظلت باهيا حذرة، فانحنت واكتفت بالتمتمة. كل ذلك بسبب إعلان نشر على ربع صفحة في الـ "إيستادو دى باهيا" بأحرف كبيرة بارزة:

"مطلوب رجل عبقري لأجل الفن البرازيلي".

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وصلت أصداء الإعلان حتى السرتون حيث كان غوميز يسرح ويمرح. وفي إحدى المدن امتنع رئيس البلدية عن نشر إعلانات بلدية في الـ "إيستادو". فالجريدة تشنّ حملات معادية للوطن. وهو كان قد نسي أن في باهيا، ناهيك عن باقي البرازيل، رجالاً عباقرة. وأجهد نفسه كثيراً كي يحصل على المنشورات. لكنه عاد غاضباً إلى العاصمة. إن تيسيانو يعمل على تدمير جريدته. لكن الأمر لن يمرّ هكذا... لن يمر ابداً.

***

سنتزوج يوم السبت القادم، قالها باولو ريجر. وسنرحل في مساء اليوم ذاته إلى نيويورك...

والتصقت ماري دى لورد بكتفه، وهي تبكي.

- ما بك يا لوردينيا؟ ألست سعيدة؟

- أجل يا باولو، ولكن...

- ولكن... ماذا؟

- أودّ أن أقول شيئاً.

- قولي يا حبيبتي.

- ليس الآن. بل هذا المساء. يوجد كثير من الناس هنا. سنذهب في نزهة هذا المساء، وسأخبرك...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أمضى باولو طيلة بعد الظهر في حالة من نفاذ الصبر مجنونة. فأي شيء جدّي إلى هذا الحدّ كانت تزمع أن تخبره؟ لقد كان دائماً يوجس ريبة من سرٍّ تكتمه عنه. تلك الكآبة... وشعر ريجر بغمٍّ شديدٍ يجتاحه. إنه يجزع من ضياع السعادة التي صارت في متناول يده، من أن يرى نفسه من جديد غارقاً في الحيرة، بلا هدف. وبكت ماريا دى لورد طيلة بعد الظهر. إن مصيرها يوشك أن يتقرر. سعادتها أو تعاستها. كانت توجس خيفة من أن لا يغفر لها.

كانت الليلة أجمل منها في أي وقت آخر. ليلة عشاق كبيرة. قبل أن يخرجا، تعانقا طويلاً في الدرج. وكان لديهما انطباع بأنهما يتعانقان لآخر مرة. مشيا في الشارع وقتاً طويلاً دون أن ينبسا بكلمة. فهو كان يوجس خيفة من الشيء الذي وعدته بإطلاعه عليه. وهي لا تملك الجرأة على إخباره بكل شيء. فحزم أمره وقال لها:

ـ تكلمي يا خطيبتي الحلوة...

وراحت تخبره وهي تجهش بالبكاء. إنها لم تعد عذراء. روت له حبها لأوسفالدو، وكيف استلسمت له ببراءة، دون أن تدري ما تفعل. إنها تستحق الغفران. لكنها لم تخبره من قبل خوفاً من أن لا يغفر لها. فهل يغفر لها؟

أما هو، فقد انتابته رغبة وحشية في التلذذ بالألم فطلب منها أن تروي له كل ما جرى بأدق التفاصيل.

وشعر بأن أضواء المدينة تنطفىء شيئاً فشيئاً. وشيئاً فشيئاً شاعت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الظلمات في نفسه. وهربت السعادة. وغرقت المدينة في ظلام دامس. تعلقت ماريا دى لورد بعنقه وراحت تعض شفتيه. وفجأة عاد النور بقوة إلى المصابيح الكهربائية. لكن نفس باولو ريجر ظلت غارقة في الظلمات.

قال لها وكأنه سكران:

- هيا بنا...

رافقها حتى بيتها. وتركها عند أسفل الدرج باكية. ومضى وهو يتنشق الهواء بقوة، تتملكه رغبة في ضرب العابرين، في أن يبصق في وجه النساء، في أن يتفوه بكلمات بذيئة.

اندهش أصحابه إذ رأوا سحنته. فسألوه عن السبب. "لا شيء، لا شيء. دعوني وشأني يرحمكم الله". طلب من الخادمة أن تأتيه بكأس "كاشاسا". شرب كثيراً. وفي آخر الليل قص على أصحابه حكاية شقائه وهو يبكي من شدة غيظه.

- فسأله جيرونيمو:

- والآن ماذا تنوي أن تفعل؟

- وهل أدري هل أدري! هل بقي لي رأس يفكر؟... لا أريد التفكير بما سأفعل!

ارتأى ريكاردو أن خير ما يمكن أن يفعل هو أن يتزوج. هذا افضل حل. لا بد أن تكون ماريا دى لورد صادقة. فليتزوج. أوليس هو من أعداء التقاليد؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فاعترض خوسيه لوبيز قائلاً:

ـ ليس بهذه السهولة يمكن التغلب على التقاليد. إن وراءها تسعة عشر قرناً. يا له من إرث رهيب...

ـ أنت على حق يا خوسيه. أنا لا أستطيع التغلب على التقاليد. أنا اشعر بانها جديرة بحبي. ولكني غير قادر على الزواج منها. أنا حيوان، لأنني أترك السعادة تهرب مني.

رافقوه إلى بيته. وبقي ريكاردو براس لينام عنده. لربما أقدم على عمل جنوني.

ظل الاثنان يتحدثان طوال الليل كله.عقد باولو ريجر العزم على زيارة ماريا دى لورد في صباح غد والزواج منها. و لَم لا؟ فما شأنه بماضيها؟ وظل يجاهد نفسه. ومع ذلك فهو يشعر باستحالة التغاضي عن الماضي، باستحالة اقتلاعه من ذاكرته. لماذا أخبرته كل شيء؟ لماذا لم تدعه يجهل كل شيء. كان بوسعهما أن يكونا في غاية السعادة.

في اليوم التالي مرّ عدة مرات أمام بيتها، لكنه لم يجرؤ على الدخول، فقال لخوسيه لوبيز:

ـ أنا رجل شقي! أنا بائس. لقد قتلت سعادتي بيدي! لأني لم أتمكن من قهر التقاليد! لكم أنا معتوه، أبله...

***

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان غوميز يحتاج إلى شخص يذهب إلى ريو(*) لأخذ أحاديث من مسؤولي الحركة الثورية الظافرة. فعرض باولو أن يقوم بهذه المهمة، ويتحمل النفقات شخصياً. هل يوجد حل أفضل بالنسبة إلى الجريدة!

ورحل باولو ريجر.

في ريو دى جانيرو لم يترك مربعاً ليلياً واحداً إلاّ وارتاده، وكان يعيش في تهتك دائم ليرى ما إذا كان يستطيع أن ينسى ماريا دى لورد. وكان يلوح له أن وجهها يتضاءل شيئاً فشيئاً في قعر أكواب الكحول التي يحتسيها...

في عصر أحد الأيام التقى شخصاً يعرفه من زمان بعيد، هو الدبلوماسي خوسيه أوغوستو، وكان هذا يجتاز الجادة وهو يرسم دوائر صغيرة بعصاه.

ناداه باولو ريجر. فقد كان يحتاج بالضبط إلى رجل مثله، أحمق ومغرور، لكي يثرثر، ويلهو، وينسى.

وربّت الدبلوماسي بحرارة على كتف باولو قائلاً:

ـ أنت، هنا، يا دكتور ريجر؟ هل أنت في نزهة؟

ـ كلا. لقد جئت لأخذ أحاديث من مسؤولي الثورة. ها أنت مطمئن الآن، أليس كذلك يا دكتور خوسيه أوغوستو؟

ـ ولماذا؟

(*) المقصود ريو دى جانيرو.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ مع انتصار الحركة الثورية ستحصل على سفارتك.

ليته لا يحدثه عن هذا الموضوع. فمشاريعه تلاشت. الوزير ليس صديقه. وإذا ظلت الأمور تسير كما هي الآن، واستمر تسريح أعداد كبيرة من موظفي الوزارات، فسيكون سعيداً بأن يبقى أمين سر السفارة. كان يتكلم وهو يشوبر غاضباً.

ـ إن الثورة قد خيبت الآمال. ونحن، الوطنيين الحقيقيين الذين آمنوا بها، خاب ظننا. لا بد من ثورة جديدة، ولكن يتوجب عليها، هذه المرة، أن تقطع رؤوس أناس كثيرين...

وراح يوشوش آخر الشائعات في أذن ريجر ويداه تقومان بحركات كبيرة. فالحالة الحاضرة لن تدوم طويلاً. إن الجيش سينتفض قريباً...

وأشار باولو ريجر إلى أن الشعب ليس راضياً. ولكن أليس هذا الشعب من طالب بالثورة؟ لقد سبق له هو نفسه أن حضر اجتماعات حاشدة كان الخطباء فيها يدعون إلى الثورة "التي تبعد البرازيل عن شفير الهاوية"...

ـ إنها قد زجته فيها يا صاحبي. زجته.

ـ كيف يمكن أن يحتج الشعب الآن، بعد مضي أشهر قليلة، على الوضع القائم. إن الناس كانت تريد، بلا ريب، أن ينهض الحكام بالبلاد خلال فترة شهرين؟

ـ ليس هذا ما في الأمر. أنت لا تعرف فضائل الشعب البرازيلي. إن شعبنا لا يصفق إلاّ للذين هم في المعارضة. وهو لم يساند حكومة قط، حتى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لو كانت خير حكومة.

ـ فضيلة، أليس كذلك؟ إنه لشعب كرنفالي...

ـ أتعرف يا دكتور ريجر من يذهب إلى المنفى اليوم؟

ـ لا.

ـ ذاك النائب السابق من باهيا الذي قدمته لك. الدكتور أنطونيو راموس.

ـ آه، أجل، ذاك الحمار...

ـ حمار هو، أجل... لكن له امرأة! هذا الحيوان!

ـ إنها مسافرة إلى أوروبا، هي أيضاً، بالتأكيد...

ـ كلاّ، إنها تبقى هنا.

ـ كنت أظن أنها مولعة بباريس. فلماذا لا تغتنم الفرصة؟

ـ لأن ريو دى جانيرو، بلا زوج، هي فردوس... أفضل من باريس.

وصلت حافلة خوسيه أوغوستو. واتفق الاثنان على أن يلتقيا في السهرة. صعد الدبلوماسي إلى الحافلة ملقياً التحية بلطف على هذا وذاك، بطلاقة من اتخذ النفاق مهنة له.

***

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لدى عودة باولو ريجر إلى الفندق وجد رسالتين. واحدة من أمه تقول له فيها إنها استلمت البرقية التي يعلمها فيها بسفره وتطلب منه أن يراسلها، والثانية من ريكاردو براس ويطلب فيها نصيحة. فإن السياسي ابن منطقته أصبح الآن في الحكم، بعد انتصار الثورة، وهو يعرض عليه وظيفة نائب عام في مدينة داخل بياوي(*). أما الراتب فهو عادي. لكن المعيشة هناك رخيصة جداً. وهو لا بد أن يعيش عيشة ممتازة هناك مع زوجته (أجل، لأنه لا يقبل هذه الوظيفة إلاّ لكي يتزوج). ولربما تمكن، فوق ذلك، من أن يشتهر كمحام (وظيفة محام عام لا تحول دون ممارسة المحاماة في القضايا المدنية) ويجمع مالاً وفيراً. وإذا تزوج روث يكون قد حظي بالسعادة أخيراً. إنه يطلب رأي ريجر في ذلك. إن خوسيه لوبيز وتيسيانو هما المعارضان الوحيدان لزواجه. "سيكون تعيساً... سيكون تعيساً.

وكان في الرسالة حاشية تقول: "عد يا باولو. الأمور هنا تسير من سيء إلى أسوأ. لا مفر من قطيعة بين تيسيانو وغوميز. وقد امتنع خوسيه لوبيز عن التدخل في الأمر. أنت وحدك...".

وردّ باولو على رسالة ريكاردو قائلاً:

"........... وإذا كنت تعتقد بأن هذا سيدخل السعادة في حياتك، فلا تتردد: تزوج. أنا لا أشير عليك بالزواج كوسيلة لحلّ مشكلة حياتك. أنا لم أحاول ذلك. لكني مع ذلك أشعر بأنني لو فعلت لكنت تعيساً. بقدر ا أنا تعيس الآن. طباعي... غيرتي... لكانت الحياة صارت جحيماً. لي ولها.

(*) بياوي ولاية من ولايات شمال البرازيل.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلا أنك إذا كنت على يقين من أنك ستجد في الحب، في الزواج، غاية حياتك، فلا تطلب نصائح، لا تستمع لأحد. تزوج وتمتع بالحياة. وإذا كنت تعيساً، فإن رصاصة واحدة تحل المشكلة كلها، تحل كل مشاكل الحياة.

إن خوسيه لوبيز سيقول، عندما تعرض عليه هذه الرسالة، أنني أقترح عليك دواء لم أقبله أنا. وتيسيانو سيبتسم مؤكداً أنني فارغاس - معتوه بليد. ولكن، إذا كنت لم أنتحر (أعترف بهذا والحزن يهدني، يا ريكاردو) فالسبب هو أني لم أجرؤ على ذلك. فكلما كنت أضع فوهة المسدس على صدغي كانت يدي ترتجف. لم أجرؤ، فأنا جبان. ولهذا ما زلت حياً وما زلت أتألم.

أما أنت إذا نسيت أنك، قبل كل شيء، فنان، شاعر، لدى انخراطك في مهنة المحاماة، فستكون سعيداً.

حلّ مشكلتك لوحدك يا ريكاردو، ولا تصغِ إلا لتعطشك إلى السعادة.

بعد يومين سأكون هناك لكي أهدىء نقمة غوميز بأحاديث صحفية مثيرة".



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعاد قراءة الرسالة التي كتبها، فلاحظ أنه كتب كلمة "هي" بحرف كبير فشطبها وكتبها بحرف صغير، قائلاً في نفسه إنها "لا تستحق أكثر من حرف صغير". ووقف أمام النافذة يتأمل البحر اللعوب، ويحلل مشكلة ريكاردو براس.

ـ المسكين! لعله سيكون تعيساً. ولربما سيكون سعيداً. فليجرب. إنه لشيء عظيم دائماً أن يحاول المرء نيل السعادة. أنا لم أقدم على ذلك؛ لكم كنت أبله!

عند العشاء وصلت الصحف المسائية.

ـ قال باولو ريجر متفلسفاً:

ـ المعدة وحدها لا علاقة لها بمآسينا. فهي لا تكف عن طلب الطعام غير متأثرة بشيء.

وقال في نفسه إن الضمير والمعدة صنوان. وراح يبرهن لنفسه عن ذلك قائلاً:

ـ الإنسان الغني والسارق ينام ومعدته شبعانة ويغفو كما يغفو أكثر ابناء الله براءة. أما الإنسان الفقير، الذي أوى إلى فراشه ومعدته خاوية، فإنه ـ يا له من مسكين ـ لن يجد سبيلاً إلى النوم، نادماً على امتناعه عن السرقة...

وراح يلتهم عشاءه، وهو يتصفح الجرائد. الشعب غاضب لأن الحكومة لا تريد أن تعطي أندية الكرنفال "المخصصات التقليدية".

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ضحك باولو قائلاً في نفسه:

ـ هذه بلاد الكرنفال! بلاد الكرنفال! لو أنني كنت رئيساً أو دكتاتوراً لكنت أنشأت كرنفالاً يدوم ٣٦٥ يوماً... ولكان الشعب يعبدني...

كانت أضواء المدينة تحاكي النجوم. وكان بينها مصباح كهربائي ضخم ينافس القمر. وكانت هناك إعلانات ضوئية تروّج لأدوية برسم المرضى الأغنياء.

وعبرت سيارات. إنهم أناس أغنياء ذاهبون إلى المسرح.

ـ صدقة، لوجه الله!

امرأة نحيلة، سقيمة، شاحبة اللون، مصدورة متنقلة، ترضع طفلاً، والجوع يرقص على خديها.

ناولها باولو ريجر ورقة نقدية، وهو شديد القلق من كونه طيباً.

كانت السيارات الضخمة لا تزال تعبر.

ـ الله يعطيك السعادة... يكافئك بالسعادة...

ـ مستحيل هذا يا أختاه! فالتعاسة ولدت معي ولن يخلصني منها إلاّ الموت...

ـ من لم يعرف الجوع، يا سيدي، لا يعرف التعاسة.

كانت إحدى اللافتات الضوئية تستعمل عبارة قالها المسيح "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. تناولوا الفورسول!".

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وردّد باولو ريجر:

ـ ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان... ولكن أين توجد السعادة لكي يتناول منها؟

- ١١ -

القطيعة، التي كانت حتمية، قد حصلت. لقد تخاصم غوميز مع بيدرو تيسيانو. أما الآخرون، فقد تضامنوا مع تيسيانو، رغم اعترافهم بأن للمدير الإداري لـ "إيستادو دى باهيا" أسبابه.

وحينما عاد باولو ريجر من ريو قص عليه خوسيه لوبيز الحكاية:

ـ تصور أننا كنا نتحدث عن الكرنفال. كان ريكاردو يجزم بأنه يستحيل اليوم أن تكتب عن الكرنفال قصة على شيء من الطرافة. إنها دائما القصة ذاتها. والد يعطي ابنته حرية كاملة، ويصادف في الكرنفال قناعاً جذاباً، فيأتي به إلى غرفة، وعندما ينزع عن صاحبته ثوبها التنكري يكتشف أن صاحبة القناع ابنته. بالطبع، كان يمكن أن تكون صاحبة القناع زوجته أو شقيقته أو جدته... لكن القصة هي ذاتها دائماً...

ـ أجل.

ـ أنا كنت من رأي ريكاردو. واقترح تيسيانو أن يكتب قصة كرنفالية طريفة. فتحديناه، وفي اليوم التالي...

ـ ماذا جرى؟....

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ نشرت الـ "إيستادو دى باهيا" القصة التي تسببت بالقطيعة.

ـ قصة طريفة؟

ـ في منتهى الطرافة. بل أكثر من ذلك، منافية للأخلاق. إنها قصة رجل أرمل له ثلاثة أولاد. الأول، وكان قد كبر، ويرتاد الأكاديمية وملاعب كرة القدم. الثاني ليس ابناً بل ابنة. أما الثالث فهو فتى في الرابعة عشرة وقد أدخله والده مدرسة داخلية. الابنة تلقت تربية على النمط الأميركي، فهي تتمتع وتتجاوز الحدّ في التمتع بالحرية المعطاة لها. وجاء الكرنفال. إن تيسيانو يعطي وصفاً رائعاً لـ "عيد الغريزة" هذا. يتقنع الوالد ويخرج لاهياً. كان جميع أفراد العائلة قد أمسوا خارج البيت، ما عدا أصغرهم سناً، الذي كان لا بد أن يكون نائماً في المدرسة الداخلية. وفي إحدى حلقات الرقص التي انخرط فيها الوالد الأرمل لمح بين الراقصين شخصاً متنكراً بزي المهرج "بيارو" فأعجب به. كان ذا قوام جميل، رائع... فراقصه، وشرب الاثنان، وتحادثا. وعند منتصف الليل ذهب الاثنان إلى مكان بعيد عن الأنظار. وفجأة نزع الرجل قناع رفيقته، فاكتشف، ويا للفظاعة...

ـ ... ابنته، على غرار الآخرين!

ـ كلا يا عزيزي. ابنه. ذاك الذي في المدرسة الداخلية. لقد هرب من المدرسة واستأجر ثياباً تنكرية وجاء ليرقص...

ـ ها، ها، ها!

بلغ الغيظ من غوميز كل مبلغ عندما قرأ القصة في الجريدة. "حكاية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لواطية تجلب العار للجريدة". وتجادل الاثنان. وامتعض تيسيانو وقرر الانسحاب. حاولنا أن نسوي الأمور. لكن غوميز أساء استقبالنا. فانسحبنا نحن أيضاً، تضامناً مع تيسيانو.

ـ يا له من كلب هذا الـ غوميز! إن كل ما لديه، مع ذلك، هو مدين به لك يا خوسيه لوبيز. لقد كنت تؤمن له العيش لم يكن له سوى "باهيا نوفا". وها هو الآن...

ـ وتيسيانو، الذي صنع شهرة "إيستادو دى باهيا"!

ـ يا له من كلب!

ـ يا له من نذل!

وقال جيرونيمو:

ـ كنت دائماً أقول إنه لا يساوي شيئاً.

ـ والأحاديث الصحفية التي أجريتها في ريو، ماذا افعل بها؟ أأنشرها في جريدة أخرى؟

ارتأى خوسيه لوبيز إرسال الأحاديث إلى غوميز. "حتى في هذا لا يجوز أن نكون مدينين له...".

ـ ما هذا الكلام! أنا أذهب إلى ريو على حسابي. وأجري أحاديث صحفية. لأي سبب ستكون هذه الأحاديث لغوميز؟

ـ لقد ذهبت وأنت تنوي إجراءها لحسابها. فيجب أن ترسلها إليه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ حسناً، سأرسلها. أنت يا خوسيه لوبيز لا تتغير. إنك الرجل الطيب دائماً.

وأعلن جيرونيمو:

ـ الآن أصبح يدير "إيستادو دى باهيا" صحافي مشبع بالأخلاق الحميدة جاء من منطقته الريفية.

ـ والمحرّرون؟

ـ أشخاص من هنا. التحرير رديء جداً...

ـ ستلقى الجريدة رواجاً. فبالنسبة إلى باهيا، جريدة كهذه وحدها...

ـ لقد التقيت غوميز منذ أيام. إنه أكثر فأكثر سمنة. إنه يثري هذا الوغد...

ـ ذكي...

ـ إلا أنه أميّ...

سينتهي به المطاف إلى حاكمية الولاية.

ـ إذا انتهى.

كان في الشارع امرأة زنجية تمشي مترجرجة الوركين، تنادي:

ـ فستق محمص! أكاراجي وأباراس(*)!

(*) طعام معد من الفاصوليا المطهوة بعد هرسها مع زيت جوز الهند وعصارة البندورة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي مكان أبعد صبي يصرخ:

ـ "إيستادو دى باهيا"... أطلبوا "إيستادو دى باهيا". مقال حول غلاء المعيشة...

***

كانت صورة ماريا دى لورد تتلاشى رويداً رويداً في ذهن باولو ريجر. وكان مع ذلك يشعر بأنه، حتى ولو توصل إلى نسيانها، لن يعود أبداً إلى بناء حياته من جديد. لن يكون له معنى ما أبداً، لن يتوجه أبداً نحو غاية ما، في الوجود. فمن أجل ماذا هو يحيا، في آخر الأمر؟ إنه يحس بحياته راكدة كمياه بحيرة لا غاية لها كما لمياه الأنهر: تجري حتى المحيط. غير أن حياته، خلافاً لمياه البحيرة، ليست صافية، ورغم ركودها، وإنما يملؤها جوع هائل. جوع إلى السعادة، أو إلى الصفاء، على الأقل، أن يحيا بلا رغبات، بلا أحلام، على غرار بيدرو تيسيانو.

فإذا كان لا يجد معنى الوجود، غاية الوجود، فليجد الصفاء على الأقل. فليصبح لا مبالياً، بلا رغبات. حتى هذا كان مستحيلاً. إنه لن يتوصل، كما تيسيانو، إلى تأليه الشك. وعذاب البحث عن السعادة لا يغادره. إنه يقضي ساعات عذاب رهيبة. يحبس نفسه في غرفته، في بيته الريفي الهادىء، ويروح يذرع الغرفة طولاً وعرضاً وفي نفسه رغبة هوجاء في الخلاص من كل شيء.

لكنه كل مرة تقريباً ينتهي به الأمر إلى ركوب سيارته والذهاب إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيدرو تيسيانو، والتحدث إليه.

لم يعد تيسيانو يخرج من البيت. فهو قد فقد بصره تماماً تقريباً وبات يصعب عليه حتى التنقل داخل البيت. إن حفيدته تعتني به، وهي فتاة في الثالثة عشرة تختفي عند قدوم ريجر. كان الرجلان يتكلمان كثيراً. وكان بيدرو تيسيانو، الماجن، يضحك من عدم ارتواء باولو ريجر:

ـ لماذا لا تلجأ إلى الدين، يا بني؟

ـ من يدري! ربما لجأت إليه يوماً...

ـ مهلاً يا ريجر، هذا يكفي. حاول أن تعيش لأجل الشك. أن تحيا لأجل الألم. لأجل عدم الارتواء. بدلاً من أن تحارب الشك، أعبده. أنا أشك في كل شي.

ـ حتى في الشك.

ـ خصوصاً في الشك...

ـ أنا أعلم يا تيسيانو بأنك وجدت حلاً. فلماذا تكتمه بمثل هذا الحرص. لماذا لا تعلّمنا إياه؟

ـ لقد قلتها مراراً! الحل هو أن لا تريد أن تجد حلاً...

ـ هذه مزحة...

ـ إن أردت...

***

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

باتت لقاءاتهم قليلة في الآونة الأخيرة. فـإن بـاولو ريجـر، المنطـوي علـى نفسه، لا يرى سوى تيسـيانو. وخوسـيه لوبـيز، الـذي يكـثر مـن الشـراب، غارق في كتبه الفلسفية، لا يشتغل، وينتقل من نزل إلى آخر باستمرار. وهو كلما غادر واحـداً منهـا انتقـل إلى آخـر أكـثر سـوءاً. وقـد أمسـى هزيـلاً، متذمراً، يكره الحياة، ويقرأ أكثر فأكثر، باحثاً عن السعادة في كتب كانط(*) والقديس توما(**).

ـ وحدها الفلسفة...

لكن ريكاردو براس غير موافق:

ـ وحده الحب، الزواج...

وتزوج ريكاردو براس. وكان بـاولو ريجـر وخوسـيه لوبـيز الشـاهدين. وقدم لـه باولو المزرعة ليقضي فيها شهر العسل، وبعد ذلك رحـل ريكـاردو ليقيم في مدينة صغيرة بعيدة داخل الـ بياوي.

ـ يا له من بائس! تمتم تيسيانو.

كان جيرونيمو سواريس يتحرر شيئاً فشيئاً من تأثير بيدرو تيسـيانو.وقـد

(*) عمانوئيل كانط (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) فيلسوف ألماني له "نقد العقل المحض"، "نقد العقل العملي"، "نقد الحكم"، "أسس ما ورائية الأخلاق".

(**) القديس توما الأكويني (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤). راهب دومينيكاني ولد في إيطاليا وعلّم في جامعة باريس. من مؤلفاته العديدة "الخلاصة اللاهوتية" و"الخلاصة ضد الأمم".

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابتدأ يصبح سعيداً. كانْ يمضي لياليه مع تلك الفتاة التي صادفها في ذلك اليوم المشهود، يوم كان بصحبة بيدرو تيسيانو. وكان ينوي أن يعيش معها في منتهى السعادة... صار لا يظهر إلا نادراً. غير أنه يوم يزور تيسيانو كان يعود متخلياً عن جميع أحلامه بعد أن يسمع مزحات صديقه.

ويروح يتصور نفسه مثل بيدرو، رجلاً لا مبالياً، متفوقاً، شريراً، قاتل أوهام.

لكنه في الليل، بالقرب منها، بين ذراعيها، ينسى تيسيانو. وتعود إلى ذهنه صورة بيت صغير، وحب كبير، وحنان كثير، وابتسامتها هي، منتهى السعادة. كان يقاوم تأثير تيسيانو عليه، ويخاف أن لا يتخلّص منه. وإذا لم ينجح في ذلك فسيكون تعيساً طيلة حياته... ولا يحقق أحلامه أبداً، ولا تكون له الجرأة الكافية ليكون سعيداً...

أما بيدرو تيسيانو، فكان يجد كل هذا مثيراً للسخرية...

***

كان باولو ريجر يسير على غير هدى، فكاد يصطدم بدونا هيلانة، التي كانت ترتعش في ثوبها الجديد، فحيته:

ـ أوه، دكتور باولو! كيف حالك؟

ـ بين بين... وأنتِ يا دونا هيلانة؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ أنا بحالة جيدة، ليس مثلك...

وأضافت بفضولٍ طافح:

ـ وماريا دى لورد، هل رأيتها يا دكتور باولو؟

ـ كلا يا دونا هيلانة. ولست أعرف شيئاً عنها...

كانت دونا هيلانة تعرف. إن ماريا دى لورد بكت كثيراً بعد القطيعة. وقد انتقلت مع عرّابتها إلى بيت آخر. بعد ذلك سمعت أن العرابة وجدت لها مركز مدرّسة في الداخل. وغادرت كلاهما المدينة...

قال ريجر، وقد اجتاح الشحوب الشديد وجهه:

ـ وداعاً، يا دونا هيلانة، وداعاً!

ـ أوه، يا دكتور باولو! أستحلفك الله... أنت دائماً مستعجل! دعنا نتحدث قليلاً... أنا الآن أسكن بيتاً يخصني. ألا تحب إن تأتي إليه؟

وذهب باولو ريجر إلى هناك. وانتابته رغبة فجائية في مضاجعة هذه الامرأة. كان بينها وبين ماريا دى لورد شيء ما مشترك. فلربما أحسّ بأنه يضاجع خطيبته السابقة عندما يضم الامرأة التي تسكن الغرفة المجاورة لغرفتها. وأخذ بالفعل يحس بهذا الشعور الغريب. وبدا له أنه يعانق ماريا دى لورد عندما عانق هيلانة.

وعاد باولو ريجر يعاني ألماً مبرحاً.

***

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صار من الصعب لقاء أحد من الأصدقاء. فإن ريكاردو ذهب بعد حفلة الزفاف لقضاء شهر العسل في المزرعة التي أعاره إياها. وأحس باولو ريجر بأن ريكاردو يزمع أن يبتعد كلياً عنهم. فهو قد حاول تجربة السعادة. وسيكون من الطبيعي، بعد أن يستقر في المدينة الريفية الصغيرة، في البياوي، حيث سيعيش تجربته، حيث سيعيش حبه البرجوازي جداً، أن لا يتذكر أصدقاءه الذين كانوا ينكرون سعادة الزواج.

وتولاّه فرح عظيم، في أصيل أحد الأيام المشمسة جداً، حينما صادف خوسيه لوبيز وهو يقرأ أحد كتب فرويد محتسياً كأساً من الفرموت(*).

ـ خوسيه!

ـ أوه، باولو! أجلس.

ـ أنت قارىء دائم، يا خوسيه لوبيز؟

ـ هذا صحيح...

ـ أما زلت عازماً على إيجاد السعادة في الفلسفة؟

ـ ما هي السعادة، يا ريجر؟ هل هي سرور كل يوم، وجع كل ساعة؟

ـ أنت تعلم جيداً أن هذه السعادة لا تشبعنا.

ـ ربما كانت الصفاء، لا مبالاة بيدرو تيسيانو.

(*) فرموت نوع من النبيذ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ لا أظن. بيدرو ليس سعيداً. أنا متأكد من أنه يعيش مأساة قاسية. لكنه لفرط كبريائه، لا يتكلم عن ذلك حتى أمام أصدقائه.

ـ أنا أستبعد ما تقول. إن بيدرو يقف فوق كل شيىء. فـوق حياتـه هـو بالذات. إنه متفوق. فهو لا يحس بالأفراح والأحزان اليومية.

ـ الرجل الذي لا يحس بالأفراح والأحزان اليوميـة يكـون رجـلاً صافيـاً. لكن هذا الرجل المثالي غير موجود. إن تيسيانو يحسُّ بـالأفراح والأحـزان... خصوصاً الأحزان...

ـ والسعادة؟ ما هي السعادة؟

ـ ربما كانت السعادة أن تجد حلاً في الحياة...

ـ وكيف؟

ـ نظام فلسفي، ديانة...

ـ هذا ممكن. لم يبق أمام المرء إذن، سوى أن يجرب الدين.

ـ وهنا أيضاً ستبوء بالفشل...

ـ لماذا؟

ـ لأن الدين لا يُشبع إلاّ متى قاربته بالفلسفة...

ـ وإلاّ...

ـ ... يمكن للمرء أن يحس بجمال الدين، بشاعريته، لكنه يسأم منه كمـا يسأم من امرأة... نحن لا نعرف الأسس، لا نعرف السبب...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ على أن الشعب، الناس الجهلة الذين لا يعرفون ما هي الفلسفة، يحسون بأنهم مرتاحون في الدين.

ـ الجهلة نعم. لكنك أنت إنسان متفوق.

ـ يا لشقاء من له شيء من العقل! أنا مستعد أن أدفع كل ما أملك لقاء جهل أحد أولئك المساكين.

ـ هذا طموح قديم عند كل إنسان ذكي، يا صاحبي.

وطلبا كأساً أخرى من الفرموت. ثم تابع خوسيه لوبيز قائلاً:

ـ لقد انتهيت من كتابة رواية حول هذا الموضوع، يا باولو...

ـ صحيح؟ ومتى ستصدر؟

ـ لا أستطيع أن أنشرها. بأي مال؟

ـ أنا أموّل الطبعة... سنعالج هذا الأمر في الحال.

دفع باولو ريجر ثمن المشروب. أما خوسيه لوبيز، في ثيابه العتيقة الشديد الهزال، فكان صورة عن حياتهم جميعاً.

ـ لماذا لا تريد أن تقيم في بيتي يا خوسيه لوبيز؟ سأعد لك غرفة...

ـ لا يا ريجر، لا تحمل نفسك هذا العناء...

ـ سأعطي أوامري. وغداً تستقر عندي.

ـ لا، يا سنيور. أنا لا أعرف أن أعيش عند الآخرين. هذه مسألة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محسومة. لن آتي إلى عندك.

ـ أنت...

***

في الغرفة الحقيرة من المنزل القذر، كان خوسيه لوبيز يرتب أوراق مخطوطة روايته. لم يكن لها عنوان بعد. وطفق يحك دماغه كي يجد لها عنواناً. فكتب "مرضى عدم الارتواء". وقرأ. لم يعجبه هذا العنوان فشطبه وكتب: شحاذو السعادة".

وفي الصفحة الأخيرة، كتب "ينتهي" بدلاً من كلمة "نهاية" التقليدية. ابتسم خوسيه لوبيز. وشطب كلمة "ينتهي" واستبدلها بكلمة "يبتدىء". وتساءل عما إذا كان أحد سيفهم أنه فقط عندما ينتهي الكتاب، وتنتهي الاختيارات والبحث الوهمي عن معنى الحياة، تبتدىء مأساة كل يوم...

وراح لوبيز يقول في نفسه: "لن يفهم القرّاء معنى الرواية. فهي حكاية بضع أنفسٍ. أنا لا أصف حتى شكل شخصياتها... ليس لهؤلاء سوى عواطف...".

وكرر هذا القول أمام باولو ريجر وهما ذاهبان إلى المطبعة.

ـ روايتي خالية من النفحة الإنسانية. إنها شخصية تماماً. إنها حياتنا... فلن يهتم بها أحد.

ـ هذا دليل على أنها كتاب جيّد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان قد جاء الليل عندما غادرا المطبعة. لقد انقضى النصف الثاني من النهار بلاضوضاء، كما كانت الحال البارحة وكما ستكون غداً.

كان الناس في إحدى الكنائس يصلون. وكانت الصلاة تتصاعد كأنها ضراعة، ضراعة كبيرة.

ـ أنا لم أصبح بعد "شحاذ سعادة" يا خوسيه... ولو كنته لرأيتني الآن أصلي...

ـ الدين يثير السخرية. ومع ذلك، فأنا أشعر بحاجة عظيمة إلى الإيمان...

ـ ولماذا لا تعتنق الدين؟

ـ لن أعتنق ديناً. ربما وصلت في آخر المطاف إلى الدين. وإذا وصلت، فهذا جيد جداً...

ـ ستصبح تومانياً...

ـ أجل سأهتدي إلى أسس الدين.

ـ أنا، مثل ريكاردو، أعتقد بأن الأشياء الطبيعية وحدها تُشبع. الغريزة وحدها يمكن أن تقودنا إلى الدين. فالدين لا يمكن تفسيره، بل يجب الإحساس به. أما الغرائزية (هذه الغرائزية لا علاقة لها بالمادية، كما ترى) فهي تستطيع أن تسوقنا إلى الدين...

ـ إلى أي دين؟ إلى دين فرويد؟

ـ كلاّ، إلى دين المسيح. ولكن دين المسيح خالياً من الزخارف...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ المزحات من جديد... لقد ولى ذاك الزمان...

ـ لا. أنا صادق فيما أقول...

***

لم تلقَ رواية خوسيه لوبيز نجاحاً. فقرأها قليل من الناس. و لم يتحدث عنها النقاد. وظلت الطبعة في المكتبات. لم يفهم أحد صرخة اليأس التي يضمها هذا الكتاب. الكاثوليك رأوا أن الكتاب يهاجم الدين. وقال الماديون إن شخصياتها تسير صوب الكثلكة. وأشاع أعداء خوسيه لوبيز أن الكتاب شيوعي.

وظلت البرازيل كما هي. لا أحسن ولا أسوأ. إنها البرازيل السعيدة، التي لا تنشغل بالمشاكل، ولا تفكر، وإنما تحلم فقط بأنها في الغد القريب ستكون "أول بلد في العالم".

***

عاد ريكاردو براس وعروسه من المزرعة. وبدت روث أكثر سمنة، وأكثر أنوثة، وهي تتكيء إلى كتف زوجها بارتخاء.

وتفرّس باولو ريجر في عيني ريكاردو، باحثاً فيهما عن جرثومة الارتواء. وفهم خوسيه لوبيز قصد باولو، فتمتم:

ـ ما يزال الوقت مبكراً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقاموا بزيارة إلى تيسيانو. كان هذا متأثراً. فقد لاح لـه أنهـا آخـر مـرة يرى فيها ريكاردو.

ـ أنت ذاهب إلى بياوي. عندما تعود من هناك لن تجدني... سأكون قـد مضيت ...

ـ مهلاً يا تيسيانو.

ـ إنها الحقيقة. أنا أشعر بالوهن. لكن من حسن حظـي أنـي رأيتـك مـن جديد...

ودار الحديث حول كتاب خوسيه لوبيز، فقال ريكاردو براس:

ـ إنه رائع!

ـ ذلك أني أحمل في نفسي مأساة كل واحد منا. إخفاق ريجر في الجسـد وفي العاطفة. وإخفاق تيسيانو في النزعة التشككية. والإخفاق الذي يصيبـك لا محالة أنت أيضاً، يا ريكاردو براس، في الحياة البرجوازية التي ستحياها...

ـ سنرى...

ـ أتظن أني أخفقت؟ سأله تيسيانو.

ـ إن كونك وضعت نفسك فوق الحياة هو إخفـاق. فـأنت لم تنتصـر في الحياة، بل ظللت متفرجاً... لقد فشلت...

ـ ربما... ربما...

ـ إنهـا مأسـاتي أنـا. لأني أعلم أنـه لن يرويني شـيء، وأخشـى أن أصير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مثلك يا تيسيانو. يستحيل علي أن أبقى لا مبالياً بالحياة. لذلك سأتألم دائماً...

وجاءت حفيدة تيسيانو بالقهوة فشربوها جرعات صغيرة، ببطء، وكسل...

- ١٢ -

فارقهم خوسيه لوبيز. وخرج معه جيرونيمو سواريس. وبقي باولو ريجر. فهو يريد أن يمضي مزيداً من الوقت مع ريكاردو براس الذي يزمع أن يرحل إلى مدينة صغيرة كئيبة، في مغامرته مع السعادة.

ـ لماذا آثرت أن تعبر داخل ولاية باهيا؟ أما كان من الأفضل أن تسافر بالباخرة؟

قال باولو هذا الكلام بشيء من القلق على صديقه الذي يزمع أن يبتعد عنهم.

ـ لا. السفر بالقطار أوفر متعة. سأذهب حتى خوازيرو(*) . ومن هناك أدخل في البياوي حيث سأقيم...

ـ ستترك وراءك فراغاً...

(*) مدينة داخلية في الشمال البرازيلي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وراح باولو ريجر* يتأمل القطار الجاثم مكانه في المحطة. كان يتساقط مطر خفيف. وكانت روث ترتدي معطفاً فضفاضاً يكاد يخفيها. فقالت بغنج:

ـ لي من الحقوق على ريكاردو أكثر مما لكم. فأنا زوجته... وأنتم لستم سوى أصدقائه.

كان القطار الجاثم بلا حراك يبعث في النفس شعوراً بالغم لا تفسير له.

وتابعت روث الكلام وهي تطوق عنق زوجها بذراعيها:

ـ على كل حال، سأفعل ذلك... سأشفيه من الاشتغال بالكلام...

ـ صدقت يا دونا روث. كلام. إن حياتنا هي كلام وحسب.

وأضاف وكأنه يحدث نفسه:

ـ ومن الذي سيتوصل إلى الشفاء من هذا المرض؟

وصفر القطار. إن في هذا الصفير الطويل الحاد شيئاً يشبه الحنين ويبعث القلق في النفس.

ـ وداعاً، يا دكتور ريجر.

ـ وداعاً، يا دونا روث.

ـ باولو...

ـ ريكاردو...

وتعانقا طويلاً، إلى جانب القطار الكبير، الجامد، اللامبالي.

ـ سلامي إلى خوسيه وتيسيانو...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهمس قائلاً:

ـ سأكون سعيداً يا ريجر.

ـ كن سعيداً...

وتحرك القطار. كان ريكاردو على إحدى النوافذ يلوح بيده مودعاً. وظل باولو ريجر مسمّراً مكانه، يرافقه ببصره: صديق آخر يرحل...

وظل وحيداً على الرصيف.

ـ مسكين ريكاردو! كم سيكون تعيساً عندما يبلغ الارتواء.

ولكن، أخيراً، قد يكون على حق! فربما كانت السعادة تعشعش في الزواج. وإذا صح هذا، فيكون ريجر قد تركها تفلت من يديه، بعد أن كانت قريبة جداً منه... كان يكفيه أن يتغلب على الأعراف. لكنه فشل هنا أيضاً. وهو الذي كان في باريس يكثر من المزاح، ويسخر من المجتمع، لكنه لم يجرؤ على مقاطعة هذا المجتمع. ولعله ترك السعادة تفلت منه.

أن يكون للمرء زوجة، وكثير من الحنان، وطفل يلاعبه، وأن يربي دجاجاً، ويشعر بالغيرة. هذه هي السعادة...

من يدري...

وتوجه باولو ريجر إلى السيارة، وبدرت منه ضحكة طويلة.

الفرح؟ من يدري؟ ربما كان الحزن...

وقعد في السيارة، شبه متمدد، وهو مسترسل في التفكير.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعد ذلك، شاء أن ينتحر. ففي أصيل أحد الأيام الرمادية، التي يحلو فيها الانتحار، قرّب المسدس من صدغه، لكن الشجاعة خانته. لقد انتابه خوف رهيب من الموت... لماذا؟ لم يدرك بعد... إنه لا يخشى ما وراء الطبيعة. وهو لا يؤمن إلاّ بحياة الجسد... فلماذا لا ينتحر؟...

كانت السيارة تجري على أرض الشارع المبلل. وكان هناك فتيان يلعبون بكرة القدم رغم المطر. أحس بالرغبة في أن يطلب من السائق أن يدهس هؤلاء الأولاد. وقد راودته هذه الفكرة بكثير من الطيبة الإنسانية. "هذا سيوفر عليهم أن يتألموا. ولكن ما من أحد يرضى بمغادرة الحياة..." الجميع يتشبثون بها بضراوة، وحتى أمثاله، المسحوقون الذين ليس لهم أي أمل (أملنا اليومي!) بأن يبلغوا ولو فتات السعادة...

لقد تشبث بالحياة. و لم يعد يريد أن يفلتها من يديه. ارتعش المسدس في يده أصيل ذاك اليوم، أصيل المنتحرين...

وعاد إلى باله ذاك القطار الكبير الذي رحل على متنه ريكاردو. كم هو بعيد صديقه...

ـ نحن فرسان البحث عن السعادة. لقد حاولنا أن نغامر معاً. أنا أخفقت. وخوسيه لوبيز هو الخاسر الدائم. أما ريكاردو، فقد آثر أن يحاول هو أيضاً أن يجد معنى الحياة... بدلاً من أن يستمر في عيش مأساتنا معنا.

قلق... ضرورة وجود **غاية**. لماذا؟ لماذا هذا الشك؟ لماذا عدم الارتواء هذا؟

ـ كلام...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعاد صوت روث يرن في أذنيه، وكأنه يغني.

ـ أريد أن أكون سعيداً (أمل صوت ريكاردو).

ـ كن سعيداً... (خيبة صوته هو).

يا له من مسكين! وعندما يبلغ الارتواء؟ وعندما يشعر بأن الأفراح المألوفة والأحزان المألوفة لا تكفي؟ ستحل به فاجعة رهيبة. ماذا ستكون نهاية ريكاردو؟ وهو ذو الطيبة الوفيرة والصدق الوفير... يا لها من نهاية محزنة...

كان هناك صبي قذر، ينادي على الجرائد. والشمس تنازلت وظهرت من خلال فجوة حفرتها في الغيوم التي تملأ السماء. في ذلك الصباح شاءت السماء البرازيلية الصرف أن تقلد سماء لندن، فاتشحت بالغيوم الرصاصية الكثيفة.

دعا باولو ريجر الصبي بائع الجرائد. واشترى جريدة وراح يقرأها كي يبعد عن باله الأفكار التي تجعله سوداوياً.

وصادف أن كانت الجريدة التي اشتراها هي الـ "إيستادو دى باهيا". المقالة الرئيسية فيها هي تحليل لسياسة الساعة. وفيها كلام كثير عن الوطن المعبود، وعن تجديد شباب البلاد، والنهوض بها، وعن شرف الوطن. قرأ باولو ريجر المقالة كلها. ورأى في النهاية توقيع أ. غوميز.

صار غوميز يكتب الآن؟ من يصدق ذلك؟... لكن العالم يدور...

غوميز... هذا أيضاً لن ينال السعادة أبداً. إنه ذكي، وكان يظن أن المال سيسدّ له عدم ارتوائه. لكنه لم يكن يعلم أن المال أحياناً عبء ثقيل. إنه هو، باولو ريجر، الكثير الغنى، يستطيع أن يقول هذا... المال لا ينفع إلاّ في إشباع الغرائز... والغريزة (وإن يكن ريجر قد اشتهى ذلك فهو لا يستطيع أن ينكر) ليست كل شيء في الحياة.

كانت السيارة تخترق شوارع المدينة. أمر ريجر السائق بالتوقف أمام أحد البارات. لم يجد خوسيه لوبيز. وتابع سيره. وخوسيه لوبيز؟ يوم تعرف عليه خيل إليه أنه التقى مثال الإنسان الصافي. وبعد ذلك، وجد أن الفرق كبير! لقد اكتشف فيه أنساناً مشحوناً بالمشاكل، على قدر من التعاسة لا يصدق... ووراء مظهره البرجوازي إنسان معذب، واحد من أبطال المسرحيات المأساوية العبثية. وهو الآن، بعد أن بات لا يؤمن بشيء: راح يمضي وقته في الشراب... لا بد أن يموت بداء السل يوماً ما. أما أصحابه فهم أشخاص تعساء. أصحابه الوحيدون، البرازيليون. أما أصحابه الفرنسيون فقد نسيهم...

سنتان من العيش في البرازيل... وأخيراً ماذا ربح من العودة إلى وطنه؟ كل مشاريعه انهارت. إنه لم يشتغل بالسياسة، ولم يمارس المحاماة. والأشهر التي قضاها في العمل الصحفي لم تعد عليه بأية شهرة. كل ما جنى لا يتعدى كونه فقد النزعة التشككية التي حملها معه من فرنسا، وبات إنساناً قلقاً... يضاف إلى ذلك أنه لم ينسجم قط مع شعبه. وكان يضيق ذرعاً بهذا الشعب أكثر فأكثر. والتفت إلى ما حوله، فشاهد إعلاناً معلقاً على عامود أحد المصابيح وعليه كتابة بأحرف غليظة حمراء.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ لنذهب ونرى ما هذا يا أوغوستو.

فدفع السائق السيارة صوب الإعلان، وقرأ ريجر:

اليوم اجتماع حاشد اليوم

المقدم كارلوس فرياس
سيتكلم عن الحكومة الحالية وينتقدها.
يلقي بعض الشخصيات خطباً
يطالبون فيها بأن تعود البلاد
إلى النظام الدستوري.

واعترى باولو ريجر الذهول:

ـ يا له من شعب! البارحة قام بثورة، وبعد مرور بضعة أشهر، ها هو يريد محاربة هذه الثورة ذاتها! يا له من كرنفال! وهذا المقدم! يوم وصلت إلى هنا كان يحيي السياسيين الليبراليين باسم مومسات باهيا. وها هو اليوم يهاجم الثوريين. إنه هوس صنع الخطب... بلاد الكرنفال...

وعادت السيارة تدرج على الإسفلت المبلل.

***

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تكوّر جيرونيمو سواريس في قعر سريره. وشاءت كونسيساو، الكلية التفاني، أن تعرف معنى ذلك.

ـ لا شيء، يا صغيرتي، لا شيء.

واقتربت منه، وقبلت عينيه.

ـ أنت مستاء مني، يا حبيبي؟

ـ كلاّ. دعيني وشأني.

وراحت تتأمله والسؤال معلق في عينيها وعلى شفتيها.

ظل جيرونيمو في قعر سريره صامتاً. إن هذا يحصل كلما كان جيرونيمو يزمع أن يزور تيسيانو. أما بيدرو، الذي كان يحس بابتعاد جيرونيمو عنه أكثر فأكثر، فكان يسخر من جميع المثل العليا في هذا العالم وفي العالم الآخر.

ـ ذلك أن الحب هو في الواقع غباء. ألست من هذا الرأي يا جيرونيمو؟ أن تهوى شخصاً لا يملك أن يعطيك سوى الجنس... والجنس في الشارع يشترى بأبخس الأثمان. الحب بلاهة شعراء رومنطيقيين جائعين. بلاهة ليس فيها أية طرافة. لا يجوز أن يولع المرء إلاّ بما يحمل سمة الطرافة. كأن تحب هندية تتمدد على سكاكين مدببة قبل أن تستسلم لك، أو أن تعيش مع غجرية تعيلك وتدور بك حول العالم، بلا وطن وبلا ربّ... أنا مولع بالغجريات، لأنني أنا نفسي غجري مثقف. لكن أن تحب امرأة عادية، شبيهة بجميع النساء، حلوة لا أكثر، تقيس الحب ولا تمارسه إلاّ متى كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فضيلة مصدقة من الكنيسة، امرأة غير ذات عيوب كثيرة، لا تعرف الانحرافات، فهذا حب مبتذل ورديء. الرجال العاديون وحدهم يحبون نساء من هذا النوع...

- أجل... يقولها جيرونيسو وقد كسا الاحمرار وجهه.

- والإيمان... لا يزال هناك رجال أذكياء يؤمنون. أن تؤمن بأن إلهاً، كائناً أسمى، يرشدنا ويحمينا... لا يزال يوجد أناس يؤمنون...

- لا يزال يوجد... نعم.

- أنظر يا جيرونيمو. يقال إن الله هو الذي خلق البشر. أما أنا فأعتقد بأن البشر هم الذين خلقوا الله. على أي حال، سواء أكان الله خلق البشر أو كان البشر هو الذين خلقوا الله، فهذا العمل لا يليق بكائن عاقل.

- والمسيح، يا بيدرو تيسيانو؟

- شاعر. ماجن. متشكك. كائن مختلف عن أبناء عصره. لقد بشّر المسيح بالرحمة لأن الناس في ذلك العصر كانوا يؤلهون القساوة. إنه جمالي. لقد أحب الجمال أكثر من أي شيء آخر. لقد أطلق في الساحة العامة مزحات رائعة. مزحة الامرأة الزانية مثلاً، لقد غفر لها لأنها كانت جميلة ولمثل هذه الامرأة الحق في أن تفعل ما تشاء. وتوصل المسيح إلى قهر الأعراف. لقد كان إنساناً خارقاً. ولكن كان إلهاً رديئاً...

- وكيف؟

- إله لم يجترح قط معجزات كبيرة! لقد اكتفى بمضاعفة عدد الأرغفة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبشفاء العميان. ولم يزحزح قط جبلاً من مكان إلى آخر، ولم ينزل على الأرض غيوماً من نار، ولم يوقف الشمس. لقد كان للمسيح صفة معادية له: كان على الدوام مشعوذاً فاشلاً.

ـ والمسيح المحب؟

ـ إن المسيح كان دائماً منسجماً مع نفسه، كإنسان. فهو قد بشّر بالغفران لأن الانتقام كان هو الشريعة في زمانه. وقد بشّر بالعفة لأن الفجور كان سائداً في ذلك العصر. وقد كان طاهراً، خارجياً على الأقل، رغم عنف ملاحقة المجدلية ونساء أخريات له...

ـ وداخلياً؟

ـ من يدري! قد يكون المسيح احتفظ بعفافه... على كل حال... العيب بين اربعة جدران ليس عيباً... هذه هي شريعة العالم...

ـ والحب الرومنطيقي والإيمان الرومنطيقي بين أربعة جدران؟

ـ البلاهة هي دائماً بلاهة، أينما كان.

وانتقل جيرونيمو إلى موضوع آخر:

ـ إنك، يا بيدرو تيسيانو، مفكر قوي لم أعرف له مثيلاً. فلقد بلغت السبعين من العمر وأنت لا تزال ملحداً...

ـ آه، أنا لا أخاف الجحيم... وإذا كان هناك من جحيم فسأتدبر أمري معه...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- لقد كنت دائماً نصف إبليس... فبوسعك أن تنشىء جريدة معارضة حتى في جهنم فولتير، وبودلير(*)، وأنت، في جهنم... إنه لشيء مسلّ حقاً!

وابتسم بيدرو تيسيانو بعد أن لاحظ أن جيرونيمو لا يصمد أمام سحر كلماته. لقد كان دائماً يحب أن يهدم أحلام هذا الإنسان الرديء والطيب، الذي كان عيبه هو رغبته في أن يكون مثقفاً.

بعد ذلك أصبح جيرونيمو يسيء معاملة كونسيساو. وأحياناً كان لا يذهب إليها، إذ أنه كان يحس بأن تيسيانو يسير في أثره.

في تلك الليلة، كان متقوقعاً في سريره، تحت تأثير مزحات تيسيانو، يلقي نظرات قرف على كل شيء. وفوق السرير كان على الجدار صورة للقديس أنوطونيوس يحمل فوق ذراعيه القويتين "الطفل الإلهي".

- كونسيساو!

- ما بك يا جيرونيمو؟

- أنزعي هذا القديس من هنا.

- رباه! ولماذا؟

- إنزعيه قلت لك!

(*) شارل بودلير (١٨٢١ - ١٨٦٧): كاتب وشاعر فرنسي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وامتثلت للأمر، حابسةً دموعها، لائمة الصورة لكي تغفر لها. وكان المصباح الكهربائي يوزع ضوءه في الغرفة ضاحكاً.

ـ أطفئي هذا الضوء يا كونسيساو!

وساد الظلام الغرفة.

ـ الحب غباوة، حتى بين أربعة جدران...

وارتمت ساق كونسيساو العارية على ساق جيرونيمو. وشفتاها المكتنزتان على شفتيه. وانطفأ الذهن شيئاً فشيئاً. ساق على ساق. شفة على شفة، وانمحى الدماغ أمام الجسد. قبلة مديدة، مغرِّدة، كان يمكن سماعها خارج جدران الغرفة الأربعة...

- ١٣ -

كانت صورة ماريا دى لورد تنام في ذهن باولو ريجر فأيقظها الخبر الذي جاءته به هيلانة. فراح يتأمل في مصير الأشياء. إن ذاك المدرّس الصغير الذي يقضي حياته يبشّر بالأخلاق ويعلم احترام المجتمع قد تجرأ وخالف الأعراف، بينما هو، باولو ريجر، الماجن المغالط، الذي يستهزىء بكل ما يمت بصلة إلى الأعراف، قد انهزم أمام المجتمع.

ـ هل أنت متأكدة من أن لوردينيا ستتزوج؟

ـ أجل أنا متأكدة... ومع معلم المدنية حيث تعلّم دونا بومبينيا. وهو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يحمل اسماً معقداً. وإذا لم أخطىء، فهو يدعى سيباستيانو هيبوليتو، منافسك.

ـ منافسي... منافسي!

وأمسك رأسه بيديه. كانت هيلانة تنتظره مرتدية أجمل فساتينها.

ـ لقد أزفت ساعة السينما يا باولو!

ـ إذهبي لوحدك. سأنتظرك.

ـ على الأقل، فلترافقني جورجينا.

كانت جورجينا تريد ذلك. فارتدت فستانها بسرعة، وخرجتا، أنيقتين جداً. وراحتا توزعان الابتسامات على الرجال المصطفين على الرصيف.

أخذ ريجو يغرز أصابعه في شعره، بحركة خاصة به. إنه يتمنى أن لا يفكر. فأخرج رأسه من بين يديه ونهض. ومشى حتى النافذة، محاولاً أن يلهي نفسه بحركة الشارع. كانت هناك سيارة لجمع النفايات ترفع الأقذار عن الأرض. إن حياته (هو لا يريد، لكن الفكرة تعاند) قذرة جداً. فمن يكون عامل التنظيفات الذي يمكن أن ينظفها؟

وعبرت سيارة كان في داخلها طيف امرأة نحيلة. نحيلة مثلها. وربما سمراء مثلها. كم هي جميلة ماريا دى لورد... العينان الواسعتان الغائمتان. أية كآبة، كآبة هاتين العينين. هاتان العينان لم تكذبا عليه قط. لقد كانتا تسران إليه دائماً بأن عند صاحبتهما شيئاً يعذبها...

لو كانت هنا في هذه اللحظة لزال كل وجعه وكل حزنه. ولكانت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تداعب بيديها النحيفتين شعره المشعث مداعبة طويلة. فيشعر بالعزاء. كم إنها طيبة ماريا دى لورد؟... أما هو، باولو ريجر، الذي يقول عن نفسه إنه منحط ومفرط في التمدن، فإنه ترك السعادة تفلت منه لأنه لم يجرؤ على مقاومة التقاليد. إن ثقل التقاليد هو في دمه، إنه موروث...

سعادة الزواج، وإنجاب أولاد، والعيش البرجوازي...

ولكن هي، هل كانت حقاً تحبه؟ وكيف استطاعت أن تتزوج رجلاً آخر؟ إنها اليوم، طبعا، تحتقر باولو ريجر. فقد تبين أنه جبان، رديء، سافل. أما الآخر، المدرّس، فقد أثبت أنه بطل. سيباستيانو هيبوليتو... اسم يليق بشاعر... شاب هزيل، بالتأكيد، طويل الشعر وينظم أشعاراً غنائية. رب عائلة صالح، في الحقيقة.

ـ السعادة ليست في متناول أحد غير الأردياء والمعتوهين.

ورنت في أذنيه ضحكة بيدرو تيسيانو، شريرة، قاطعة.

ـ كل هذا كلام... كلام... (حلاوة صوت روث).

وأرخى باولو ريجر ذراعيه في حركة يائسة.

ـ آه، الحياة.

ومشى نحو الغرفة بخطى متثاقلة وأخذ قبعته واتجه صوب الباب.

ـ أتمضي الآن يا دكتور باولو؟

ـ أنت هنا يا بيبي؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ نعم كنت هنا. هيلانة لا تصحبني إلى أي مكان. مع أني صرت صبية.

ونفخت صدرها، فبرزت تحت فستانها صورة نهديها الصغيرين. فابتسم باولو ريجر، باشتهاء.

ـ تعالي يا بيبي.

أقعدها على ركبتيه. وأخذت يداه تتلمسان شكل جسدها. إنها لا تزال بنتاً صغيرة، ولكنها فاسقة تماماً. وطارت أفكار ريجر نحو ماريا دى لورد. نعم إن ماريا قد فقدت عذريتها، ولكنها ظلت طاهرة. وترك بيبي فجأة، ومضى مسرعاً، وراح يركض في الشوارع السيئة التبليط، وكأنه يريد الفرار من شيء ما.

ـ نادي قمار؟

ـ أجل. وماذا في الأمر؟ نادي قمار.

لم يصدق باولو ريجر عينيه. وكان خوسيه لوبيز يبتسم وعلى وجهه إمارات الشك.

ـ لقد صرت صاحب نادٍ للقمار لأن هذا يدرّ ربحاً وفيراً. أنا لا أقوم بأي عمل، اللهم سوى بيع الفيش وتناول القهوة مع الزبائن.

ـ لقد جننت يا خوسيه...

ـ لماذا يا باولو؟

ـ وانغماسك في الثقافة؟ وطموحاتك، كل ذلك؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ ومن قال لك إن عندي طموحات؟ أنا لا أطمح إلى أي شيء. ليس عندي رغبات أدبية. وأعتبر أنه يستحيل الحصول على السعادة. وأنا، فوق ذلك، ملزم بأن أدفع أجرة النزل...

ـ أنت...

ـ إسمع يا باولو. لقد بدلت رأيي في كل شيء، فأنا مقتنع كلياً بما يقوله بيدرو تيسيانو. إن الأشخاص الخارقين، الأشخاص غير الاعتياديين، لا غاية لهم. إنهم يعيشون لكي يعيشوا... هذا ما أفعل أنا.

ـ وعدم الارتواء؟ والشك؟

ـ مواقف ذهنية...

ـ إذن أنت، كزوجة ريكاردو، تعتقد بأن كل هذا كلام بكلام؟

ـ بالضبط.

ـ هذا جميل!

ـ إسمع يا باولو، إن الغاية هي الموت، كما يجزم تيسيانو. في الموت وحده تكمن السعادة، لأن الموت وحده يخلصنا من آلام هذا العالم.

ـ ولِمَ لم تنتحر حتى الآن...

ـ لا تعجب لذلك. أنا عاطفي جداً. فلماذا أسبب لكم هذا الألم، أنتم الذين تحبونني كثيراً، لك ولتيسيانو وريكاردو وجيرونيمو؟

ـ أنت على حق. فأنا الذي لم ينتحر لأنه لم يجرؤ على ذلك.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ لـهذا السبب فقط؟

ـ لـهذا السبب خصوصاً... صحيح أني فكرت بأمي وبكم... لكن ألمي كان كبيراً... لقد كنت جباناً...

ـ هذه حماقات يا باولو. دعك...

ـ أتعلم أنها ستتزوج؟

ـ خطيبتك السابقة؟

ـ نعم، ماريا دى لورد.

ـ هذا لا يدهشني كثيراً. الحياة في آخر الأمر هكذا. لقد شعرت بالحاجة إلى زوج. ووجدته، ليس أكثر من ذلك. لم يكن أنت، فكان رجلاً آخر.

ـ أنا الشقي، لأني تركت السعادة تفلت مني...

ـ من يدري إن كنت لن تكون تعيساً تماماً؟ الحب، يا باولو، لا يجلب السعادة... ولا يجلبها أي شيء في الحياة...

ـ حتى ولا الفلسفة يا خوسيه؟

ـ وحتى الفلسفة لم أعد أؤمن بها. كنت أظن أن الفلسفة تعطينا الصفاء على الأقل، إنها تحل المشاكل. لقد أخطأت. وخاب ظني مرة أخرى.

ـ الخبرة مصنوعة من الخيبات...

ـ أنا أملك خبرة واسعة...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وودعه خوسيه لوبيز. فقد كان الوقت متأخراً وكان عليه أن يؤمن العمل في مقمرته.

ورافقه باولو ريجر بعينين حزينتين. إنه هزيل، وقد تجوّف خدّاه، وسعل كثيراً في أثناء الحديث... كانا يلتقيان نادراً. فخوسيه لوبيز كان لا يخرج، كاتماً بؤسه عن الجميع... ويتذكر ريجر أنه كان الأكثر ثقة، الأكثر آمالاً، الأكثر طموحاً إلى السعادة، وكان يقول إنه بلغ الصفاء. وقد بات الآن محطماً، يشرب في البارات، ويدير نادي قمار، ويترقب الإصابة بالسل. إنه لرمز فشلهم جميعاً... إذ أنهم قد فشلوا فشلاً ذريعاً...

***

فشلوا جميعاً ما عدا جيرونيمو سواريس. فهو، إن لم يكن قد بلغ السعادة الكاملة حتى الآن، فإنما هو يسعى إليها بخطى واسعة. إنه يتحرر أكثر فأكثر من تأثير بيدرو تيسيانو، ولذا قرر أن يعيش بصورة نهائية مع كونسيساو. لقد استأجر بيتاً صغيراً وفرشه بشكل لائق. انتقل الاثنان إلى البيت الجديد بعد ظهر أحد أيام السبت، وراحت كونسيساو ترتب منزلها الجديد بابتهاج وعلى وجهها فرح طفولي. فهي كانت دائماً تحلم بأن يكون لها بيت. يوم كانت لا تزال فتاة في بيت أهلها كانت ترى في الزواج المثل الأعلى المطلق. ثم ضلّت طريقها. وصارت مومساً مهانة، لكنها لم تنسَ حلمها قطّ. بيت صغير... ورجل تكون له كلياً، تكون حبيبته، وترى السعادة فيه. وكم مرة استهزأت رفيقاتها في العمل، وهن عاهرات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مسفلسات ووقحات، بأحلامها ورغباتها!

- متى وقعتِ في هذه الـهوة، يا ابنتي، لن تعودي تخرجين منها. وجلّ ما تستطيعين عمله هو أن تجدي لك حامياً... لكن هذا أسوأ. فإذا شئت يوماً أن تعطي جسدك لرجل آخر، فهـذا ممنوع عليـك. إن رجلـك وراءك على الدوام. وإذا ركبت رأسك، مع ذلك، فسيكون نصيبك الضرب والعودة إلى الشارع.

كانت كونسيساو تخاف أن تتخذ لـها صديقاً.

- جسدنا نحن لا يقلـع عـن عـادة أن يكـون لجميـع النـاس. إنـه لا يقنـع بواحد...

ولكن كونسيساو وُلدت لتكون أم عائلة. ولدت لتستسلم لرجل واحد، واحد فقط. ولذلك، حينما دخل جيرونيمو، العاطفي والمتعطش إلى الحـب، في حياتها، أدركت أن أحلامها تتحقـق. وأحبتـه بشغف. وهو، من جهتـه، كان طيباً للغاية.

- إنه قديس! تقول رفيقاتها. مع أنه في بعض الأيـام يبـدو سـيء المـزاج، يتفوه بكلمات قاسية. ويجعلها تتألم. فتبكي كثيراً، ويصبح هـو ثقيـلاً. لكـن الأيام المماثلة أخذت تقل تدريجياً في الآونة الأخيرة. وراحت تفاخر بأنهـا في سبيلها إلى استمالته نهائياً بقوة حبها. لكنها لم تكـن تعلـم أن هـذه المعجـزة هي نتيجة تضاؤل تأثير تيسيانو على جيرونيمو. في الواقع أصبح جيرونيمو لا يرى تيسيانو إلاّ قليلاً. فهو يخشى أن يقـع في الطـوق الحديـدي مـن جديـد. طوق مزحات هذا الـهدّام.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ الحب بلاهة...

لكن جيرونيمو، المتعطش إلى الحب، يؤثر أن يكون أبلـه علـى أن يكـون تعيساً.

***

التقوا عند بيدرو تيسيانو. لقد ساءت حال صديقهم فجأة، فسارعوا إلى المجيء منذ أن وصلهم الخبر. كان باولو ريجر حزيناً جداً، عاطفياً جداً، ينتابه الخوف من أن تعاجل المنية تيسيانو. فصاحبه هذا كان يعينه، بمزحاته ونزعته التشككية، على تحمّل الحياة... أما جيرونيمو سواريس، فكان يتكلم، وكأنه مجدلية تائبة، عـن تهكمـات تيسيانو. وبقـرب السـرير الـذي كـان المريـض المسكين يريح فيه جلده وعظامه، كان يقـف خوسيه لوبيز وفي يـده ملعقـة كبيرة مليئـة بـالدواء. وأمـا بيـدرو، الـذي لا يـزال واعيـاً، فكـان يحـاول أن يتحدث إليهم.

ـ أنتم طيبون جداً! لا أدري كيف يمكن لي أن أردّ لكم هذا الجميل...

ـ ما هذا الكلام يا تيسيانو. أرجوك...

ـ هذا واجب علينا. فنحن مدينون لك بكثير...

وراح جيرونيمو سواريس يعدد المنافع التي أغدقها عليهم بيدرو تيسيانو.

وقال خوسيه لوبيز لبيدرو وهو يناوله الدواء:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ إنه ليس مديناً لك بشيء يا تيسيانو. وإذا تماديت في التأثير على هذا الفتى، فستجعل منه إنساناً تعيساً...

ـ لكن على الأقل سيكون مختلفاً عن سائر الناس. هذا ما أردت أن أفعل، إنساناً مختلفاً يليق بنا.

ـ لكن هذا ليس له. إنه فتى طيب جداً...

ـ إنه لطيب جداً. صاحب نفس كبيرة...

ـ إلى حدّ أنك تغفر له صغر دماغه...

ـ المسكين!

وسأل بيدرو تيسيانو عن أخبار ريكاردو براس، وعما إذا كانوا قد تلقّوا رسالة منه؟ فأجاب باولو:

ـ لا، إنه يتمتع بسعادته البرجوازية، ولا يكتب إلينا.

فرد خوسيه لوبيز قائلاً:

ـ هذا ليس صحيحاً... إنه لا يكتب لأنه تعيس. ريكاردو متكبر جداً. كنا لا ننفك نردّد أن السعادة ليست في الحب، وأنه سيشبع منه، وقد حصل ما كنا نتوقع. لربما كان يتألم كثيراً في هذه الساعة. لكن كبرياءه تمنعه عن البوح بذلك لأصدقائه... لن يعترف ريكاردو أبداً بأنه كان على ضلال.

ـ مسكين، يا صاحبي ريكاردو...

ـ أنت، يا باولو، صرت عاطفياً بعد مأساتك الغرامية...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ هذا صحيح، فاليوم لم يبق لي أحد سواكم، يا أصدقائي. وإذا فقدتكم فسأكون وحيداً في الحياة، لا أدري ما يمكن أن يحدث. إنني في الحقيقة قد بدأت أفقدكم. خوسيه وجيرونيمو لم أعد أراهما. تيسيانو مريض. ريكاردو في البياوي.

ـ أنا اريد أن أخفي عنكم منظر شقائي...

ـ ما هذه الكبرياء يا خوسيه!

ـ وجيرونيمو يخبيء سعادته. هكذا... يجب أن يشقى الإنسان لوحده وأن يسعد لوحده.

ـ لم أعد أعرفك يا خوسيه.

ـ هذا لأني صادق اليوم يا باولو...

ـ أن تنطق بمفارقات الآن؟

ـ إكراماً لتيسيانو.

ـ آه!

ودق ساعة الجدار. فطلب تيسيانو إعطاءه الدواء:

ـ أنا الذي لم أطع أحداً قط في حياتي، أراني ملزماً، في آخر حياتي، بأن أطيع ساعة...



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ أريد أن أقدمك لحبيبتي.

ـ نعم يا جيرونيمو. يجب أن تتحرر من تيسيانو. إنه يحبك، وكان يظن أنه يفعل كل هذا لأجل خيرك. لكنه أخطأ... عليك أن تطمح إلى السعادة فوق كل شيء. إن تيسيانو، الذي يهوى عدم الارتواء والألم، كان يبغي أن يجعل منك نسخة عنه. ولو نجح في ذلك لكنت تعيساً إلى الأبد. تيسيانو كائن استثنائي. إنه آتٍ من زمان آخر. فهو لا يحس، كما نحس نحن أناس الزمن الحاضر، بضرورة البحث عن السعادة، البحث عن غاية الوجود. إنه يحيا لأنه وُلد. فهو لا يريد أن يحقق ذاته، لا يريد أن ينتصر.

ـ ويمكن أن نقول حتى إنه لم يرد...

ـ صحيح. إنه يفارق الحياة. تيسيانو العظيم... لا يوجد من أمثاله في خلال قرن من الزمن إلاّ القليل... وهم يقضون نحبهم في البؤس.

ـ لقد وُلد في البرازيل...

ـ في بلاد الكرنفال هذه، لا تبرز إلاّ الأقنعة العادية. لقد كان متفوقاً كثيراً علينا. لقد عرف كيف يتغلب على عدم الارتواء. لم يضطر إلى حلّ مشكلة وجوده. لقد وضع نفسه فوق الحياة. كمتفرج...

ـ لكننا نحن...

ـ نحن ينبغي لنا أن نحيا. وأن نسعى إلى عدم الإخفاق. أن نحاول العثور على السعادة. ولكي لا تعيش شقائي وشقاء خوسيه لوبيز... ينبغي لك، يتوجب عليك أن تكون سعيداً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ سأكون كذلك يا باولو.

- ١٤ -

ركب السيارة مسرعاً. فالمكالمة الهاتفية صدمته. إن بيدرو تيسيانو ينازع. إنه يعيش اللحظات الأخيرة من عمر بالغ الاضطراب. المكالمة الهاتفية التي تلقاها باولو ريجر كانت من ابن تيسيانو. وقد دقت ساعة الجدار الكبيرة، بصوت أجش، الحادية عشرة مساءً. عقب المكالمة نزل باولو ليوقظ السائق. ودفع باب الغرفة، فوقع نظره على السائق والخادمة نائمين معاً ببراءةٍ كبراءة من شبعت غريزته. فأيقظهما. وتلعثم الاثنان بالاعتذار. وغطت الخادمة وجهها باللحاف خجلاً، بدلاً من أن تغطي سائر أجزاء جسدها التي كانت مكشوفة، سخية.

ـ هيا يا أوغوستو. لا أهمية لهذا. تستطيعان أن تناما معاً متى شئتما. هذا لا يعنيني. ولكن الآن يجب أن أخرج في الحال. أخرج السيارة.

كانت السماء تمطر بغزارة. وشاء أن يؤلف عبارة تقال بالمناسبة فنطق بحماقة:

ـ يبدو أن السماء تبكي رحيل تيسيانو. أما باهيا وأدباء البرازيل الأردياء فسيبتهجون. ولعلهم سيقيمون حفلة راقصة...

توقفت السيارة أمام باب جيرونيمو سواريس... طرق الباب. فلم يجب أحد. وطرقه من جديد. لا أحد. أخيراً راح يدق الباب بقبضتيه، وقد أخذ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منه الغضب كل مأخذ، مستعجلاً الوصول إلى منزل صديقه الذي ينازع. وظهر جيرونيمو على النافذة.

ـ من هذا؟

هذا أنا، باولو ريجر.

وجاء جيرونيمو ليفتح الباب. وقد بدا عليه القلق.

ماذا في الأمر يا ريجر؟

ـ تيسيانو في طور النزاع. فلنسرع.

وارتدى جيرونيمو سترة وسروالاً بسرعة فائقة، وأقلعت السيارة من جديد باتجاه النزل الذي يسكنه خوسيه لوبيز.

بعد أن هزهز الاثنان البوابة الخارجية الضخمة، ظهرت صاحبة النزل، وهي امرأة مسنة قصيرة القامة، سمينة، واضعة يديها على وركيها، وقالت:

ـ ماذا تريدان؟

ـ نريد التحدث إلى السيد خوسيه لوبيز.

ـ إنه لم يعد إلى النزل مساء البارحة. وهو لا يجرؤ على الظهور قبل طلوع الفجر. هذا الغشاش مدين لي ببدل إيجار شهرين. فهو يعود إلى غرفته متأخراً جداً في الليل ويتوارى منذ الصباح الباكر. لست أدري ما يفعل... هذا الغشاش!

ـ يكفي يا سيدتي. بكم هو مدين لك؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ لحظة لأرى... ببدل إيجار الغرفة عن شهرين على أساس مايتي ألف ريس.

ـ أنا أدفع المبلغ.

وأخرج ريجر المال من محفظته. وتغيرت لهجة الامرأة:

ـ أعذروني. لكنكم تدركون...

وعدّت الأوراق النقدية بأمانة تامة:

ـ ولكن يوجد مايتا ألف ريس زيادة عن اللزوم.

ـ إنها بدل إيجار شهر إضافي. لكن لا تقولي شيئاً لخوسيه. والآن أين يمكن أن أجده؟

ـ لست أدري يا سيدي. إنه لا يقول بتاتاً إلى أين يذهب...

ـ وظل الاثنان حائرين. أين يمكن أن يعثرا على خوسيه لوبيز؟

ـ لعله سبقنا إلى بيت تيسيانو...

ـ لا. قال لي ابن بيدرو إنه ليس هناك حتى الآن، وإنه لا يدري كيف يمكنه أن يتصل به.

وفجأة:

ـ لكنه يدير نادياً للقمار، ألا تعرف أين يا جيرونيمو؟

أجل كان جيرونيمو يعرف المكان. وانطلقت السيارة. وتسلقا درجاً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طويلاً، وعند الطابق الثالث طرقت مسامعهما صيحات أشخاص سكارى.

ـ لا بدّ أنه هنا.

سألا البواب، فأجاب قائلاً إن خوسيه لوبيز لا يظهر منذ أيام، وإنه بين حين وآخر كان يأتي إلى النادي حين يطيب له، وذلك لكي يشرب فقط... وعلّق البواب على ذلك، وهو مثال الخلاسي البرازيلي قائلاً:

ـ رجل غريب الأطوار هذا السيد خوسيه لوبيز. إنه يقرأ ويشرب بلا انقطاع. والحكايات التي تبتدىء على هذا النحو، رأيت مثلها الكثير...

لم يسمع باولو وجيرونيمو كلام البواب هذا، إذ أنهما كانا قد نزلا وأصبحا بعيدين.

ـ يجب أن نتخلى عن البحث. هيا بنا.

ـ هيا بنا.

واندفعت السيارة في الشوارع المزروعة بالحفر، حاملة الرجلين، وكان الصمت حزيناً، ثقيلاً.

***

دخل بيدرو تيسيانو طور النزاع وهو يملك قواه العقلية تماماً، مع أنه كان قد قارب السبعين من العمر. وبدا وسيماً في الساعات الأخيرة من حياته. إنه جلد منشور على عظام، مع أن وجهه، الذي عاشت به الحمى، كان متشحاً بجمال غريب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دخل باولو ريجر مطأطىء الرأس، مشدود الشفتين خشية أن يبكي. إنه يحب هذا الهدّام الرائع الذي عرف أن يحيا حياة معارضة.

وعانق جيرونيمو سواريس بيدرو قائلاً:

ـ كيف الحال؟

ـ وأجاب المنازع بصوت خافت:

ـ الحال كما ترى.

كان في الغرفة لمبة كهربائية صغيرة تذرف ضوءاً شاحباً من خلال عاكس النور.

تطلع تيسيانو حوله وقال:

أين خوسيه؟

ـ لم نفلح في العثور عليه. لكنه لن يتأخر بعد الآن. على أي حال، لا يزال لدينا وقت طويل لنتحدث... سنين...

ـ دعك من هذا يا جيرونيمو. أتود أن تعزيني؟ أنا أعلم أني مائت. لكنني لا أخاف الموت. لقد عشت كثيراً. أنا أعرف الحياة والبشر.

وأضاف مازحاً:

ـ والنساء أيضاً.

كان ابنه وحفيدته يبكيان. أما باولو ريجر، فكان صامتاً، تكاد تخنقه الزفرات، كان يبدو كأبله.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان بيدرو تيسيانو يبتسم للموت. إنه إنسان رائع حتى آخر نسمة من حياته، إنسان رائع في مماته كما كان رائعاً في حياته.

وكان باولو ريجر، وهو إلى جانب سرير تيسيانو، يسائل نفسه مرتعداً كما لو كان هو الرجل المنازع: لنفترض أنه يوجد نعيم وجحيم؟ فلا بدّ من أن يدان بيدرو تيسيانو. ولعله سيتعذب. هذه الفكرة تثير حنقه. وماذا لو دعونا كاهناً؟

ومرّ بيديه على شعره، ثم على جبينه الساخن. واقترب من تيسيانو ووشوش في أذنه:

ـ لنفترض أنه توجد حياة أخرى يا بيدرو؟

ـ أنت تبغي دعوة كاهن يا ريجر؟ لا تفعل هذا. أنا لست مؤمناً. وأصرُّ على أن يعرف الناس أنني أموت غير مؤمن.

وأجهد نفسه كي يبتسم. ثم أضاف بصوت أكثر خفوتاً:

ـ حتى لو افترضنا أن هناك حياة أخرى، فأنا أفضل الجحيم.

ثم دنت اللحظات الأخيرة. وانقبضت سحنة بيدرو تيسيانو متشنجة من الألم.

ـ أنا أموت! أموت!

فاندفع نحوه باولو سائلاً:

ـ أجبني يا تيسيانو. ما هو حل المشكلة؟ لأجل أية غاية نحيا؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ نحيا لكي نحيا. السعادة هي كل ما لا نصل إليه، ما نشتهيه...

ـ وما هو سرّ الصفاء؟

ـ عدم الاشتهاء. بلوغ أسمى درجات التخلي عن الابتغاء. أن تحيا لكي تموت....

واسترخى، منهوكاً. كان جيرونيمو يبكي كطفل. وكان ابنه منكمشاً في إحدى الزوايا، يتأمل المشهد الموجع. ورفع تيسيانو رأسه بجهد بائس، ودار بنظره فيما حوله كأنه يودّع، وقال بصوت خافت كأنه آتٍ من وراء القبر:

ـ يا لـها من نهاية محزنة لمأساتي الكبيرة!

ثم حاول أن يبتسم مرة أخرى. لكن فمه قاوم بألم. فأغمض عينيه. وفارق تيسيانو الحياة. عانق ابنه جثة أبيه طويلاً. وكان جيرونيمو يجهش بالبكاء. وراحت حفيدته تتلو صلاة لا يعرفها باولو ريجر، صلاة تطلب الراحة لنفس جدها.

كانت الفتاة تتلو بصوت عالٍ:

ـ "أبانا الذي في السماوات".

شعر باولو بالرغبة في أن يصلي معها. وبيدرو تيسيانو الذي مات ملحداً. فغادر الغرفة قبل أن ينفجر بالبكاء. وأخذ يصلي، بشكل يثير السخرية، كما فعلت حفيدة المتوفي...

***

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أخيراً عثروا على خوسيه لوبيز وهو سكران في أحد البارات. هزّه باولو:

ـ خوسيه! خوسيه!

ـ ماذا باولو؟

واستعاد خوسيه لوبيز كامل وعيه وهــو يتفـرس في سـحنة صديقـه الـتي عاشت بها المصيبة.

ـ مات بيدرو تيسيانو.

ـ ماذا؟

وقعد خوسيه لوبيز. ومر بيديه على عينيه. وراحت سكرته.

ـ وأنا لم أكن حاضراً...

ـ لقد بحثنا عنك، وكان مستحيلاً العثور عليك.

ـ يا للمصيبة، يا للمصيبة!

ـ إنها هائلة. يبقى علينا الآن أن نهتم بالدفن.

ـ صحيح.

ـ أنت، يا خوسيه لوبيز، ستؤبنه.

ـ لن يشارك في الدفن أحد غيرنا.

لكن ما حصل كان غير ما توقعوا. فقد شارك في الدفن كثير من الناس. وشاع الخبر سريعاً في المدينة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال باولو ريجر:

- إن الأقلام الشريرة الوطنية سترقص فرحاً. فها هي قد تخلصت من عدوها الأكبر.

وذكّر جيرونيمو بأن بيدرو تيسيانو كان يعتبر الأدب البرازيلي صورة منحطة عن الأدب البرتغالي. وكان يجهر بذلك. وكان هذا يثير سخط الوطنيين. فهم الآن مسرورون لا محالة، ولعله، بغية التأكد من وفاة بيدرو تيسيانو، كانت جميع الصحف وجميع الأقلام في المدينة مشاركة في الدفن. لكنها ندمت على ذلك. فإن الخطاب التأبيني الذي ألقاه خوسيه لوبيز كان رهيباً، إذ أنه ندد بجميع البلهاء الذين كانوا دائماً يعارضون بيدرو تيسيانو في كل شيء، وهم الذين تناسوه دائماً، وهم الان حاضرون هنا، فيا لـهم من منافقين. إن بيدرو لا يعبأ بحضورهم. إنه لم يطلب حضورهم، وهو لا يشكرهم عليه. كانت الزفرات تتخلل خطبه. وكان يسعل بعض الأحيان. وخطر في بال أهل القلم أنه لن يتأخر في اللحاق ببيدرو تيسيانو.

ظلوا معاً، على طاولة أحد البارات حتى ساعة متأخرة من الليل، وهم يتذكرون صديقهم الراحل.

- الخيوط التي كانت تربطني إلى الحياة قد انقطعت. وها أنا الآن أفقد ما بقي لي من أصحاب.

الاثنان الآخران،الغارقان في صمت ثقيل، لم يردّا على خوسيه لوبيز.

- ريكاردو بعيد جداً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتذكر جيرونيمو:

ـ يجب أن نعلم ريكاردو.

وأخذ باولو على عاتقه أن يكتب إلى الغائب.

ـ مسكين ريكاردو. سيأسف كثيراً...

ـ إننا سنعكر سعادته...

ـ أو نزيد من عدم سعادته...

وكان الحاكي، في إحدى الزوايا، يغني لحن سامبا هادراً:

"إيستافيدا إي بوا... "(*).

إن الشخص الذي كتب هذه الأغنية مخبول كبير جداً. هذه الحياة بؤس في بؤس...

وتذكروا كلمات تيسيانو الأخيرة.

ـ كنت دائماً أقول إنه يعيش مأساة كبيرة.

ـ إنه صدق الرمق الأخير...

ـ أو المزحة الأخيرة؟

(*) إنها حلوة، نعم، هذه الحياة. (المترجم).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد اكتسبتُ اليوم، يا باولو ريجر، صفاء بيدرو تيسيانو. أنا لم أعد أشتهي أي شيء... وسأعيش هكذا حتى مماتي...

لم يقل جيرونيمو شيئاً، معتقداً أنه من الإجرام أن يحاول بلوغ السعادة بين هذين الرجلين التعيسين.

وغادروا البار، بينما كان الحاكي لا يزال يهزج، هازئاً:

"إيستافيدا إى بوا...."

اشتروا جرائد من صبي كان يرتجف في أسماله البالية. لقد نشرت جميع الصحف اليومية مقالات طويلة عن وفاة بيدرو تيسيانو. وتقريظات كثيرة. وخصصت له "إيستادو دى باهيا" أسطراً سوداء عريضة. وأعربت عن حزنها على غياب "الأديب الكبير الذي تولى إدارة الجريدة فترة من الزمن، ورفع اسمها عالياً". وأضافت: "نحن الذين كنا أصدقاءه حتى آخر ساعة، ولم نتخلّ عنه". وختمت: "إننا في حداد كما كل البرازيل التي فقدت واحداً من أبنائها".

- إنه كلب هذا الـ غوميز!

- إسمع... لقد أراني ابن تيسيانو اليوم برقيات تعزية من جمعية الصحافة ومن أكاديمية الآداب...

- يا لهم من أنذال! حين يموت عدوهم يشيدون به. وقبل ذلك، يقاطعونه كيفما كان، بسبب الخوف...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ لكني سأكتب مقالات في هذا الموضوع... سأحطمهم... تعهّد بذلك خوسيه لوبيز.

ومضى كل واحد منهم إلى بيته.

وفي السماء، لم يكن القمر يشبه امرأة ذابلة. بل كان فقط الكوكب التابع للأرض.

ـ ١٥ ـ

بالرغم من كل شيء، كان يشعر وكأن شيئاً ما ينقصه. إن صعوده إلى السعادة قد تحقق بسرعة بعد وفاة تيسيانو. وهو قد نسي مزحات صديقه، ونصائحه، وكلامه التهكمي. وطرح مشاكله جانباً كما لو أنها كانت عبئاً ثقيلاً على كاهله. وفقد عدم ارتوائه بسرعة. فلم يكن هذا سوى حالة ذهنية تحت تأثير تيسيانو. وهو الآن يتذكره كما لو كان خرافة، كائناً خارقاً يعذّب ويفرض نفسه. إن تيسيانو، الذي كان يعذبه، والذي زرع الشك في نفسه، كان قد سيطر عليه بقوة تحدياته وبشخصية المتشكك الهدّام التي كانت له. وأخذ جيرونيمو سواريس يحس بالحماسة إياها حينما يعبر الشارع جنود ينشدون ما يسمى بالنشيد الوطني. وعاد يتذوق الأشياء الاعتيادية في الحياة. فأقام علاقات مع جيرانه. وأخذ يناقش في السياسة مع السيد بريدوريدس أنطونيس دا أنكارناساو الذي يميل إلى عودة البلاد إلى الحكم الدستوري. وصار يسلّم على الامرأة المسنة الساكنة في الحي والتي تصنع حلويات تبيعها في المدينة. وعاد من جديد ذاك الموظف الصغير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النموذجي الذي كانه في الماضي قبل أن يتعرف على بيدرو تيسيانو.

كان هذا هو الصعود إلى السعادة.

وفوق كل ذلك. كان عنده كونسيساو. فالمومس السابقة، الوفيرة الحنان، تملأ حياته. وهي تحبه كما تعرف أن تحب المرأة التي باعت جسدها إلى الكثير من الرجال. إن هؤلاء النساء هن خلاصة الحب المقطرة. ذروة الحنان. إن كونسيساو تفهم رغباته قبل أن يفصح عنها. إنها تعطيه تلك السعادة اليومية التي ينالها الرجال المتوازنون والتي يسعى الآخرون وراءها على الدوام. وهي، في الليل، تضع رأس جيرونيمو على ركبتيها وتروح تداعب شعره الخلاسي طوال ساعات. ويظل الاثنان صامتين، يتلذذان بالسعادة. ولم يعد له أيام يكون فيها عكر المزاج. إنه هو هو على الدوام. طيب على الدوام، وعلى وجهه ابتسامة دائمة هي ابتسامة من تخلص من عدم الارتواء.

إن روث، زوجة ريكاردو، كانت على حق. فهذا كله، قضية عدم الارتواء هذه، كانت كلاماً أدبياً...

ولكم يعترف اليوم بأن روث كانت محقة؟ كل هذا كان كلاماً أدبياً... وهو يشعر، مع ذلك، بأنه لا يزال ينقصه شيء ما. إن سعادته كبيرة، لكنه لا يصح القول بأنها مطلقة. فهو يحس بنقص ما، لكنه لا يدري ما هو. وبعض الأحيان، وهي نادرة حقاً، كانت هذه الفكرة تخطر في باله وتقلقه. إن شيئاً ما ينقصه...

ويتفق له بعض الأحيان وهو في مكتبه، حيث يداوم بدقة الآن، أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يطرح ريشته جانباً ويغرق في التأمل. الحب؟ لقد حصل عليه. المال؟ إن راتبه جيد. وعنده المائدة الطيبة، والسرير الطيب. فماذا ينقصه؟ هل يكون شيطان عدم الارتواء هو الذي يلاحقه؟ وهل تكون مزحات بيدرو تيسيانو ومغالطاته هي الحقيقة؟

ـ كلاّ، إن قضية عدم الارتواء والشك هي قضية باولو وخوسيه لوبيز، لا قضيتي أنا. فأنا إنسان برجوازي سعيد، لا يملك ذرة من التعقلن... ولكن، ما هذا الشيء الذي ينقصني؟

ويوقظه زميله في المكتب قائلاً:

ـ هيه، هل أنت في القمر، يا صاح؟

ـ لا إني أفكر بأشياء...

ـ تفكر؟ أنت شاعر يا فتى؟

ـ ماذا؟ لا سمح الله...

وفي العشية كان يتساءل أيضاً. إنه لن يستريح طالما هو لم يبلغ السعادة الكاملة. إذا ظل الإنسان يجتر المشكلة إياها فإنه يمسي تعيساً. في ذاك الحين لم يكن جيرونيمو سواريس يشتهي شيئاً، ولا يكنّ طموحات. أما رغبته في أن يصبح رئيساً لدائرته فلا تعتبر طموحاً حقاً.

***

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعد أن ارتوى جسد كونسيساو اضطجعت في السرير مسترخية، هي أيضاً، وقد انفرج ساقاها وتمددا على طولهما، في صفاء من أشبع جوع جسده. وسحب جيرونيمو اللحاف حتى ذقنه متأهباً للنوم. إلاّ أنه كان لم يتخلص تماماً من عاداته السيئة في التحدث مع نفسه، تلك العادة التي ورثها من معاشرة بيدرو تيسيانو. وقبل أن يستسلم للنوم استسلم لأفكاره.

إنه، في آخر الأمر، لم يخن أصحابه. فتيسيانو نفسه كان يقول إنه ليس هناك نقائص. وفضائل. فالمسألة تكمن في أن يحسن الإنسان تربية فضائله كنقائص أو أن ينزل نقائصه إلى مصاف الفضائل. أما هو، فإنه يربي فضائله كما كان تيسيانو يحب نقائصه. إن فضائله هي أسباب ارتوائه. على كل حال إن الآخرين كلهم حاولوا نيل السعادة، فأخفقوا، أما هو فقد نجح.

وبسبب من سذاجته ظن أن هذا كان مسألة حظ وحسب. وهو لم يتذكر قط عبارة تيسيانو: "الحمير والمعتوهون وحدهم يصلون إلى السعادة...".

أسوأ ما في الأمر هو ذاك الشيء الذي ينقصه. فإذا وجده فسيعيش سعيداً طوال حياته. ماذا يمكن أن يكون ذاك الشيء؟

ويقول، محاولاً أن يقنع نفسه:

ـ لا شيء. إنه بقية من تأثير أصحابه.

وأخذ النعاس يثقل أجفانه فالتف باللحاف ونام. ورأى حلماً غريباً. تذكر، في هذا الحلم، تلك الليلة التي عاد فيها غاضباً من عند تيسيانو وأجبر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كونسيساو على نزع صورة القديس أنطونيوس عن الجدار. وامتثلت كونسيساو، لكنها بكت كثيراً...

أفاق مرتعداً. ووجد حل المشكلة. فالذي ينقصه هو الإيمان، الدين. أجل إن ما ينقصه هو الله.

وشاع في نفسه السرور، فهز كونسيساو:

ـ كونسيساو! حبيبتي! استيقظي!

فتحت الامرأة عيناً متثاقلة:

ـ ماذا في الأمر يا جيرونيمو؟

ـ أتعلمين أنه غداً يجب الذهاب إلى الكنيسة؟

ـ ماذا؟

وانتفضت مذعورة. وظهرت على وجهها علامات التبرم (يقطع عليها نومها ليزعجها) وانقلبت إلى الجهة الأخرى وأغفت.

ـ ليس لي إلاّ أن أذهب أنا إلى الكنيسة...

ورسم جيرونيمو سواريس إشارة الصليب على وجهه، وغطى رأسه باللحاف ونام لأول مرة في حياته سعيداً كل السعادة...

***

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن التجار المتجولين، الذين يغامرون فيندفعون في تجوالهم حتى هذه المدينة الصغيرة داخل الـ بياوي يعطون رأيهم النهائي فيها:

ـ مدينة صغيرة بلا حياة، بلا حركة، وأناس بلداء.

إن هؤلاء الـ "نيازك" على حق. تماماً على حق. إنها نموذج المدينة الشمالية في البرازيل. لا حركة فيها. تجارة صغيرة يهيمن عليها عرب دهاة. الصيدلية، وهي المكان العام في الدساكر البرازيلية، وملتقى أهل الكلام: الكولونيل ـ رئيس البلدية، الطبيب، معلّم المدرسة، القاضي، المحامي ـ السيد ليو كاديو دى بوست، وجميع وجهاء المدينة. والحانوت الذي يبيع حتى الحرير. والدكان التي تعرض في واجهتها، أيام السوق، قطعاً من لحم الغنم ودجاجات ضخمة. و"الشارع الكبير" الطويل حيث يوجد مقر البلدية وحيث يقيم الطبيب. وساحة الـ "ماتريس" حيث تنتصب دور أصحاب الامتيازات. لا يسكن هنا إلا أعيان المدينة. وهناك أيضاً بضعة شوارع، صغيرة، ضيقة، حيث يوجد قليل من البيوت وكثير من الناس. وعلى أطراف المدينة، ثلاثة بيوت تعيش فيها مومسات قليلات جداً. لا أثر لأي جديد هنا على الإطلاق. تعرض الأفلام السينمائية أيام الخميس والسبت والأحد. وهناك فتيات جالسات أمام أبواب بيوتهن يشتغلن التنتنا (لا تزال توجد فتيات يشتغلن بالتنتنا). كل الناس يعرفون بعضهم. الكلام عن حياة الجار فن قائم بذاته، فن صعب تبرع فيه دونا فيليسمينا، زوجة جوكا النجار. مدينة حتى القاصرون فيها لهم شخصيتهم. قليل من الصبيان، وكثير من البنات. طهارة رومنطيقية على طراز ١٨٣٠. هناك بضعة فتيان فقط يعرفون النساء. ذلك أن القلة منهم أكملت الواحدة والعشرين من العمر وهي السن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التي يسمح لـهم آباؤهـم فيها أن يتفتحوا. هذه هي البرازيل بكل طهارتها!

شاعرية رقص الـ "كوكوس"(*) الـذي لا يـزال يمـارس في أكـثر البيـوت ثراء. (دونا ريزوليتـا، ابنـة رئيـس البلديـة، الـتي تتعلـم في العاصمـة، تجـد أن رقصـات الــ "كوكـوس" مثيرة للسـخرية. إنهـا تعـزف علـى البيـانو قطعـاً موسيقية جديدة، بربرية. وينعتها الشعب، على سبيل الانتقام، بالمجنونـة...). والكاهن ذو المسحة الأبوية، الذي يبـارك الجميـع، وهـو أب لخمسـة عشـر ولداً أعطوه حتى الآن بضعة أحفاد. بدائية وجمـال ديانـة حافلـة بالخرافـات، ديانة أفريقية أكثر منها أميركية لاتينية. الثرثرات الدائمــة في الصيدليـة طـوال النهار، من الثامنة حتى الظهر، ومن الواحدة حتـى السادسـة مسـاءً. اللعـب بالداما أمام باب الدار، وتحلّق الفضوليين الذين يمتدحون الضربـات الناجحـة (السيد النقيب تيودور بطل في لعبة الداما). الأعراس النادرة لشبان لم ينزحوا إلى ساوباولو سعياً وراء المال والعيش.

قليل من الأشـياء الجديـدة، وكثـير مـن الأشـياء الجذابـة. مدينـة صغـيرة سعيدة، بناتها لا يقرأن "بيتيغريلي" ولا "يفرفشن" في السينما، بل يفكـرن في الزواج. مدينة يعبد النـاس فيهـا فلوريـانو بيكسـوتو ويعتقـدون بـأن إنكلـترا تخشى البرازيل ("متى ستأتي الحرب مع الأرجنتين..." - ويلقي السيد النقيب تيودورو أحجار الداما من يده ويروح يصف المآثر المقبلة). حيث الفتيـان لا يتألمون من التعقيبة، وحيث المومسات آلـهات عسيرات المنال. ثـم أن هنـاك شيئاً لا يصدق وجوده، هناك حب في هــذه المدينـة. حـب نقـي، منزه عـن

(*) رقصة شعبية في الشمال الشرقي من البرازيل ومنشأها ولاية آلاغواس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشهوات. (مع الفتاة التي نحب لا نفكر بأمور نجسة: هذه وسيلة لا تخطىء لمعرفة ما إذا كان الاثنان يهويان بعضهما حقاً، حسب اعتقاد فتيان المدينة....).

- بركتك يا أبانا...

- باركك الله يا بني.

شاب في الثامنة عشرة من العمر يبسط يده، في عرض الشارع، ليتلقى بكل احترام بركة ممثل السماء. إنها لشاعرية عظيمة حلوة التفاهة في عمق البرازيل.

وهناك، في الزاوية، مكتب تحرير "أو كرافو"، وهو مقفل لعدم وجود أخبار ومحررين.

غير أن المدينة تشهد حركة ناشطة في أيام العيد الوطني. فتمتلىء بالقصب وبأعلام الأخضر والأصفر. الفرقة الموسيقية تعزف في حديقة ساحة الـ "ماتريس" ألحاناً وطنية، وهي فخورة بمهارتها. إنها أفضل فرقة موسيقية في مدن ودساكر المنطقة. ولا ينافسها في العاصمة إلا فرق قليلة جداً. ويراهن جوكا النجار، الذي يجمع بين مهنته ووظيفة قائد فرقة موسيقية، على أنه ليس باستطاعة أي فرقة من فرق العاصمة أن تنتصر على فرقته، إذا حصل تحدّ...

ويقام كرمس في المدينة. هناك أتراك يأخذون صوراً سريعة. وفتيان يتحدثون مع خطيباتهم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان العيد كبيراً في ذاك اليوم. لأن رئيس البلدية الكلي الجدارة (الجدير إلى حدّ أن الثورة لم تستطع الإطاحة به، فاكتفت بتغيير لقبه وسمته "المتوسط") قد نظّم، بمشاركة النقيب تيودورو، برنامج احتفالات يخرج عن المألوف. عند الساعة الثالثة من بعد الظهر سيتكلم في حديقة الساحة السيد القاضي، وعند المساء سيلقي الدكتور النائب العام محاضرة حول "يوم الوطن".

النائب العام كان ريكاردو براس. وقد ذاع صيته كخطيب جيّد بعد أن ألقى بضع خطب في مناسبات احتفالية كهذه. فكان يلقي، في الأعياد، أشعاراً من نظمه هو تطرب لها الآنسات وتثير غيرة دونا روث. وكان ريكاردو يزمع أن يصدر "أو كرافو" من جديد. إنه يحب اسم هذه الجريدة: "أو كرافو ـ مسمار مطروق"، يستطيع أن يهاجم، أن يخترق، و"قرنفلة" تستطيع أن تمدح، أن تسحر. اسم موفق، غني بالمعاني. لم يكن ريكاردو يعمل كثيراً، إذ أن الملاحقين الواجب اتهامهم ومحاكمتهم كانوا نادرين. فكان يربي عصافير. ويشارك في أحاديث الصيدلية. ويحب امرأته. وكان يحس بأنه تعيس تماماً. إن هذا النوع من الحياة لا يناسبه. كانت الرتابة وانعدام غير المتوقع يعذبانه كثيراً. ورأي أصحابه صحيح: إنه لم يجد السعادة في الزواج. لقد فشلت تجربته. وتحول حبه إلى عادة. قبلة الصباح، الأحاديث التافهة طيلة النهار، المجادلات بشأن الغداء، وفي الليل معاً في السرير، روث لم تتغير. إنه يحبها حباً برازيلياً حباً برجوازياً، بوصفها امرأة متزوجة لائقة، لا تعرف الحدة ولا تعرف العيوب. إن الهدوء الذي يكتنف حياتهما يعذب ريكاردو براس. بالفعل إنه لم يولد لأجل هذا. تفاهة هذه الحياة ـ الأكل،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النوم، إلقاء خطاب بين حين وآخر، التحدث مع أناس جهلة...

إنه قد أخفق... عدم الارتواء، الذي عزم على قهره، بات يتحكم به تماماً. وصار اليأس يملأ جوانحه. إنه يقضي أياماً لا ينبس ببنت شفة، ويعيد قراءة الكتب القليلة التي جاء بها من باهيا. ورأت روث أنه "تغير".

ـ أنت بحاجة، يا حبيبي، إلى التخلي عن هوس الأدب...

ـ أعرف ذلك.

كان يجب أن يقوم بنزهات في الحقول المجاورة ويستسلم للتفكير. لقد دفن حياته. لعله سيصبح قاضياً يوماً ما، ولكنه لن يتجاوز هذا الحد، ويظل قاضياً محترماً حتى آخر حياته. كان من الأفضل له لو بقي في باهيا، مع أصدقائه، يعاني معهم المأساة التي كانت تعذبهم. لقد باشر كتابة رسائل إلى باولو ريجر وخوسيه لوبيز عدة مرات. لكن الكبرياء كانت تمنعه من إرسالها. فهو لن يعترف بتعاسته لأحد... إنه قد فشل...

ـ السعادة ليست في متناول أحد غير البلهاء والمعتوهين...

ـ لكم كان بيدرو تيسيانو على حق! أما هو ريكاردو، فقد احتج على هذا الكلام، مؤكداً أن معنى الوجود يكمن في الحب. وها هو قد خبر ذلك بنفسه. فهو متزوج ومحبوب من امرأته التي تنتظر مولوداً، وهو يكسب عيشه بشكل محترم نسبياً، ولكنه تعيس كلياً. لقد كان يظن أن السعادة اليومية هي في متناول الرجال الأذكياء.

***

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت ساحة الـ "ماتريس" تعج بالناس. الشعب كله هنا مرتدياً أجمل ثيابه. وتدور ألعاب "صاري الحلوى" و"الإناء المكسور" و"الركض في الكيس"؛ وخطاب للسيد القاضي، وفي المساء محاضرة ريكاردو براس التي كان الناس ينتظرونها.

ـ إنه يتكلم جيداً، السيد النائب العام...

ـ إنه يسمّع درساً حفظه، يا صغيرتي، فهل من عجب...

وراح يقلد:

"كواندو فوسي باسّا،

أو جانتيل برنسيسّا..(*)

كان هناك مجموعات من الناس يثرثرون بحمية. أما ريكاردو، الذي كان جالساً إلى جانب زوجته، غارقاً في التفكير، فلم يلاحظ وجود القاضي الذي دنا منه بلا كلفة قائلاً:

ـ هولا، ريكاردو!

ـ أوه، دكتور فاوستينو! إذن سنسمع خطابك بعد لحظات...

ـ سترون. إنه خطاب عظيم. لا يوجد هنا أحد يفهمني غير أنت والطبيب. أما الآخرون فهم جهلة...

(*) "عندما تعبرين أيتها الأميرة اللطيفة". (المترجم).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان الجمهور يطلب سماع خطاب السيد القاضي. وعزفت الفرقة الموسيقية النشيد الوطني.

ووقف الخطيب جامداً في لباسه الرسمي الضيق، وعلى رأسه شعرات قليلة بيضاء تجابه قرعته الغزيرة العلم، ورفع يده في الهواء وصاح:

ـ أيها البرازيليون...

وارتجل الخطاب الذي حفظه عن ظهر قلب ليلة البارحة. وتحدّث عن "ماضي المدفع المجيد" (مدفع عتيق غير صالح من أيام حرب الباراغواي، تحتفظ به المدينة كإرث ثمين) وأنهى خطابه بتقبيل العلم تقبيلاً مؤثراً:

ـ وطني أمي! وطني أمي!

وانفجر التصفيق. ودار العناق، والتهاني. والتقريظات.

ـ خطاب جميل!

حتى زوجة رئيس البلدية قد بكت.

اقترح النقيب إنشاء مجموعة من الاحتياطيين. سيكون هذا رائعاً. وحين تأتي الحرب مع الأرجنتين...

وشاء القاضي أن يعرف رأي "زميله" ريكاردو براس في الخطاب الذي ألقاه.

ـ أعجبني كثيراً. إنه جيد جداً...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحاول الأولاد تسلق صاري الحلوى تجذبهم ورقة الخمسة آلاف ريس المتأرجحة في أعلى الصاري. وخرج من الإناء المكسور قط فرّ مرعوباً وركض الأولاد في أثره. كان ريكاردو براس يشاهد كل هذا بضجر كبير. فهو قد دفن حياته...

ـ لماذا لا تذهب وتتحدث مع رئيس البلدية والقاضي؟ إنك قابع هنا كالدب...

استغربت روث موقف زوجها.

فتوجه ريكاردو نحو المجموعة التي كان أفرادها يتحدثون عن إنشاء مجموعة احتياطيين.

ـ السيد النائب العام، الآتي إليها، سيكون الرئيس.

ـ شكراً. الرئيس يجب أن يكون رئيس البلدية.

والسيد القاضي أمين السر.

ويكون الطبيب أمين الصندوق.

ـ والدكتور ريكاردو يكون الخطيب...

ـ موافق.

واقترب السيد ليوكاديو دى بوست:

ـ لقد وصلت البارحة رسالة لك يا دكتور ريكاردو. ها هي.

رسالة من باولو ريجر. تلهف على قراءتها. إن فيها أخباراً عن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أصحابه. لكنه اضطر أن ينتظر طويـلاً. وانتهـت الحفلـة. وأعطيـت البركـة، وألقى الكاهن موعظة عن العفة...

انزوى في غرفته. وعندما انتهى من قراءة الرسالة، سال الدمع مـن عينيـه فلطخ أوراق المحاضرة التي كتبها منذ ايام. لقد مات بيدرو تيسـيانو... مـات وهو يؤكد أن السعادة هي في عدم الاشـتهاء، بينمـا هـو، ريكـاردو بـراس، الذي كان يشتهي كثيراً... العيـش لأجـل العيـش... بينمـا هـو كـان يريـد العيش لأجل الحب... يا له من بائس... بائس...

وأرخى برأسه على الطاولة، في حالة من القنوط التام. واجتـاح أعضـاءه تعب شديد...

ـ لا يبلغ السعادة إلاّ البلهاء والمعتوهون...

ـ كل انتصار في الحياة هو إخفاق في الفن.

كان صوت بيدرو تيسيانو يرن في أذنيه رنيناً معدنياً. وراح يتخيل صورة صديقه: طويل القامة، نحيل، لا يرتدي إلاّ اللون الأسـود، شـديد التشـكك، يتفوه بمفارقات...

ـ الوصول إلى أسمى درجات التخلي عن الاشتهاء... إلى الزهد...

وبكى ريكاردو براس على إخفاقه.

طُرق الباب. فلم يرد. طُرق الباب من جديد.

ـ من؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ أنا روث.

ـ ماذا في الأمر؟

ـ أتريد أن تجعل رئيس البلدية والقاضي ينتظران؟ لقد حان وقت المحاضرة. هيا.

في ذاك المساء لقي ريكاردو براس نجاحاً عظيماً في محاضرته الوطنية...

ثم عاد الضجر...

الشيء ذاته أبداً.

الأرض التي تدور حول الشمس ٣٦٥ يوماً.

يوم، ويوم آخر.

الأرض التي تدور على نفسها كل ٢٤ ساعة.

النهار. الليل.

الشيء ذاته أبداً.

المأساة ذاتها: مأساة الرتابة...

- ١٦ -

كان سريعاً تحوّل خوسيه لوبيز. فهو قد اختفى منذ نحو شهر. وذهبت سدى مساعي باولو ريجر للبحث عنه من بار إلى بار. لقد تبخر خوسيه لوبيز. وأقفل نادي القمار. وصاحبة النزل لا تعطي أية معلومات عنه. فعزم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

باولو ريجر على التخلي عن البحث، فإذا به يصادفه بعد ظهر أحد الأيام خارجاً من إحدى العيادات الطبية وهو حسن الهندام، ويبدو أكثر صفاءً.

عدا في أثره واصطدم برب عائلة محترم يعود مطمئناً إلى بيته وهو يحمل طروداً كثيرة فتدحرجت على الأرض.

ـ هالو خوسيه!

والتفت خوسيه لوبيز وأخذ يعانق باولو ريجر.

ـ كنت على وشك الذهاب إلى عندك.

ـ أنت اختفيت. وقد أتلفت ساقيّ في البحث عنك...

وتأمل باولو ريجر صديقه، فإذا وجهه هادىء، وعلى شفتيه ابتسامة. أتراه وجد الغاية من الحياة؟

ـ أنت رجل آخر... لقد تغيرت تماماً... هادىء...

ـ أتعتقد؟

ـ هل أنت عاشق؟

ـ لا، لحسن الحظ.

ـ فماذا جرى لك يا صاحبي حتى صرت هكذا؟... أتتذكر ذلك الإعلان عن دواء لم أعد أذكره؟ "فيما مضى كنت هكذا" ثم نرى رجلاً يبدو مريضاً؛ "وأمسيت هكذا" ثم نرى رجلاً يشبه الموتى؛ "اليوم أنا هكذا" ثم نرى رجلاً سميناً وقوياً. فهل حققت معجزة ذاك الإعلان. يوم تعرفت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عليك، كنت تبدو مريضاً؛ ثم ساءت حالك كثيراً. وها أنت اليوم في أحسن حال...

كان خوسيه لوبيز يستمع مبتسماً.

ـ أي دواء شفاك؟

ـ هل ندخل أحد البارات؟ سنكون هناك أكثر ارتياحاً لكي نثرثر.

ـ حسناً.

كان البار يغص بالرواد. وكان يسمع صوت المذياع ينقل مباراة في كرة القدم. وكانت هناك نساء شهيات يوزعن الابتسامات، ورجال رصناء يشربون بهدوء، وعلى وجوههم ذاك السرور الصافي الذي ينبع من أقدس الفضائل: البلاهة.

جلس الاثنان إلى طاولة في إحدى الزوايا. لم يعد باولو ريجر ذاك الشاب الأنيق الآتي من أوروبا. فهو لا يهتم بملابسه إلاّ قليلاً، إذ أنه كان غارقاً في المشالك، وكلها ذاتي. ومع ذلك كانت النسوة تتطلعن إليه. ألا يملك الدكتور باولو ريجر مزارع كبيرة؟

ـ أيمكن أن تكون الفلسفة...؟

ـ أجل...

ـ أتتذكر بيدرو تيسيانو يا خوسيه لوبيز؟ كان يقول إننا نعيش لأجل أن نعيش، وإنه لا يمكن الوصول إلى الطمأنينة، مهما تكن نسبية، إلاّ بالكف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن الاشتهاء. أن تصبح لا مبالياً... زاهداً... هذا السوبر بوذا... تيسيانو... قد بلغ هذا الكمال. أما نحن، أبناء عصرنا، فإننا لا نقدس الشك مثله. إننا نحاربه. ونحن كنا نحارب بيدرو تيسيانو. لقد حاولنا أن نكتشف معنى الوجود، الغاية التي من أجلها نحيا، السعادة، إن شئت. وكنت أنت تقول إنها تكمن في الحقيقة الفلسفية. وكان ريكاردو براس يرد قائلاً بأن الحب ـ العاطفة وحدها تتضمن معنى الحياة... كنت أفكر مثله، وقد طلبت السعادة في الغريزة. وفشلنا. لا أتكلم عن جيرونيمو، إنه رديء، ولذا فهو ليس من أولئك الناس غير المرتوين. انعدام ارتوائهم جميعاً ليس سوى انعكاس لعدم ارتوائنا نحن.

ـ أجل...

ـ لقد فشلنا، وقلت لي يوم وفاة تيسيانو إنك لم تعد تنتظر أي شيء من الفلسفة... إنك تخليت...

ـ يحق للمرء أن يشعر باليأس في بعض الأيام.

ـ قلت لي إنك لم تعد تشتهي شيئاً. وإن بيدرو تيسيانو بتشككه الذي كان دارجاً قبل الحرب هو على حق. وأن الحقيقة هي الشك. وإنك من أتباعه...

ـ كان يوم شعور باليأس، كما قلت لك. لكنني لم أكف يوماً عن البحث في الفلسفة عن قوى تمكنني من التغلب على عدم الارتواء، من إيجاد حلٍّ للمشكلة...

ـ وهل وجدتها؟

ـ لقد وجدتها. الثقافة الفلسفية كافية لجعلنا نبلغ الصفاء...

ـ الصفاء هو التزوير...

ـ تزوير السعادة، أعرف ذلك. لكن السعادة المطلقة لا وجود لها. حتى عند الحمير. حتى عند البهائم. وبحجة أولى عندنا نحن! فالمطلوب إذن، هو الصفاء. الصفاء الذي لم يجلبه الزواج إلى ريكاردو براس، والذي منعته عنك الغرائز.

ـ لكنه الصفاء الذي بلغه بيدرو تيسيانو عن طريق التشكك.

ـ أي عن طريق مبدأ فلسفي...

ـ مبدأ أن لا يكون للمرء فلسفة...

ـ هذا، مع ذلك، موقف فلسفي...

ـ وهذا هو الموقف الذي اتخذته؟

ـ كلاّ.

ـ إذن أنا لا أفهم كيف يمكنك أن تكون صافياً. من يحوز الحقيقة؟ أنت أم بيدرو تيسيانو؟

ـ أنت تعني تلك الحقيقة القديمة قدم الزمان، التي اجتازت العصور في قعر بئر؟ هذه، يا صديقي، تبقى حيث هي. وكما كان يقول تيسيانو، أنا لا أنوي سحبها من هناك. بل أترك هذه المهمة المضحكة لغيري...

ـ أنا أفهم أقل فأقل...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ ذلك أن الحقيقة شيء نسبي جداً. لا بد أن يكون هناك حقيقة خاصة بكل إنسان. إن ما يعطي كل واحد الصفاء يكون الحقيقة العليا في نظره...

ـ معنى هذا أن أي نظام فلسفي يستطيع أن يحل مشكلة شكوكنا؟

ـ أجل.

ـ شيء لا يصدق!

ـ إنها مسألة شعور... أنت بحاجة إلى الله، فتصل إلى التومانية. والحقيقة الفلسفية في التومانية هي في نظرك الحقيقة المطلقة...

ـ أأنت توماني؟ كنت دائماً تقول لي...

ـ كلا. لقد وصلت إلى القطب المقابل. أنا مادي...

ـ وحاجتك إلى الإيمان؟

ـ بدلاً من الإيمان بالله، أنا أؤمن بالإنسانية. أريد سعادتها...

ـ أنت...

ـ .... شيوعي...

ـ غير ممكن...

ـ هذا صحيح.

ـ لكن في الشيوعية مساوىء لا تحصى، يا خوسيه.

وبدت على وجه خوسيه لوبيز مسحة من الوقار، كما لو أنه محام يعد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مرافعته. فانفجر باولو ريجر ضاحكاً.

- أتهزأ مني؟...

- أنا أعجز من ذلك...

- إذن، أنت تحب الإنسانية كلها؟

- كما فعل المسيح... وكذلك بوذا... أما المساوىء، فالشيوعية فيها مساوىء. لكن المحاسن أكبر منها...

- ولكن، أنت تساوي نفسك بكل البلهاء...

- إنهم جميعاً حتى الآن أرقى مني...

- والعائلة؟

- لا عائلة لي، كما تعلم جيداً.

وتابع يقول:

- على أي حال يجب القضاء على الأفكار المسبقة عند الشعب. يجب الإطاحة بالكنائس، بالأوثان، يجب قطع رؤوس. وحكومة النُخب؟

- نُخب بحارة...

- أما نخب اليوم فهي نخب أميين ومعتوهين...

- وأنت تؤمن بالإنسانية؟ وتؤمن بمشاعرها الطيبة؟

- أوه، كلاّ! أنا أؤمن بالمشاعر، وليس بما يسمونه بلغة الابتذال مشاعر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طيبة. نحن سنهذب السيء منها، سنربيها.

ـ والحركة الروحانية؟

ـ ردة فعل بسيطة...

ـ أنا أحس أكثر فأكثر بأني أحتاج إلى الإيمان...

ـ هذا لا يعني أنك تحس بضرورة الإيمان بكائن أسمى. آمن بالبشر، بالأشياء المادية. تذكر أنني كنت أفكر مثلك...

ـ أتريد أن تجعلني أعتنق أفكارك؟ أنا لا يمكنني أن أكون شيوعياً صالحاً. أنا أحب أن ألبس جيداً.

ـ وأنت غني. أنا لا أحاول إقناعك باعتناق أفكاري. فأنت برجوازي صرف. ومن واجبك أن تحاربنا...

ـ أنا؟ كلا. فليتابع العالم سيره. أنا وصلت إلى منتهى السعادة... أنا واحد من أبناء جيلي. الجيل الذي يتألم. الذي يشهد آخر زفرات الديمقراطية وأولى غمغمات الشيوعية. جيل وسط. جيل الألم. أنا ضائع في ليل الشك. وتراني أوغل فيه أكثر فأكثر. هناك أذرع غير منظورة تلتف حولي. وأخيراً أنا بحاجة إلى أي شيء...

ـ أنا أفهم تماماً.

ـ وأنا أشعر بأن ذلك الصفاء، صفاء تيسيانو وصفاءك أنت، لا يكفيني. لعل أحفادي، وحدهم، سيحلون المشكلة. كل جيل يشرع في النضال هو جيل يتألم. ونحن شرعنا نناضل ضد الشك...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ كان المذياع يصم الآذان بأخبار عن معجزات صنعتها قديسة في مدينة من داخل منطقة ميناس جيرايس.

ـ هذا الشعب الصوفي لن يقبل نظامك السياسي أبداً.

ـ هذه الصوفية تساعد.

ـ نحن البرازيليين اليوم نشعر بأننا نحمل ملايين العاهات. إننا نتألم عن أجدادنا وعن أحفادنا...

ـ والحل...

ـ الانتحار الجماعي...

وصمت باولو ريجر، وقد أعياه التعب. وسالت على جبينه قطرات من العرق البارد. وكان خوسيه لوبيز حزيناً وبصره ضائعاً في عمق البار.

ـ هذه الحياة...

عانق باولو ريجر. ومضى إلى بيت رفيق، إسكافي، بعد أن أسرّ في أذن صديقه:

ـ على المرء أن يجد له مبدأ، مثلاً أعلى، أن يعلل نفسه. أنا أعلل نفسي بقضية الشيوعية هذه. لذلك أنا أهرب منك. أنت تبين لي الواقع، وترهقني بالأسى. أنا الآن أعالج حتى مرض السل الذي كان يتربص بي... أترى... إن أصير عاقلاً... ولربما صرت، حتى أحمق...

رافقه باولو ريجر بالنظر حتى آخر الشارع، وتمتم بلهجة مأساوية:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ مسكين...

وشرب كأس الكونياك.

ـ مسكين...

***

عقد العزم على الرحيل إلى أوروبا. يوم نزل من السفينة في البرازيل، أنيقاً، متشككاً، هداماً، مشحوناً بالأحلام، كان يعتقد أنه سيحقق أشياء عظيمة. فهو سيغدو كاتباً معروفاً، سياسياً بارزاً. وقد أخفق... فهو ليس أكثر من إنسان غير مرتوٍ، إنسان بائس، بعد أن عانى المأساة الغرامية وحاول أن ينتحر. إنه يعود إلى باريس كي ينسى. ولعله سيجد الهدوء من جديد؟ كان في الآونة الأخيرة يعيش في حالة من التوتر العصبي الشديد. سيعالج نفسه في أوروبا. سيقرأ كثيراً. وربما الفلسفة.

ـ خزعبلات...

احتجت أمه. إنه قد وصل البارحة... ورتب كل شيء... سترحل هي أيضاً للتعرف إلى العالم القديم. أمضى صبيحة اليوم وهو يصف لها عجائب ذاك العالم. فاقتنعت. وتقرر أن يمضي باولو إلى ريو ليشتري ما يلزم، وتركب أمه السفينة لدى مرورها بباهيا.

في ريو شعر باولو ريجر بأنه أكثر طمأنينة. وفي خضم حركة هذه المدينة الهائلة لم يعد يتذكر مأساته الغرامية قدر ما كان يتذكرها من قبل. لقد نامت ماريا دى لورد في دماغه. ولم يعد هناك بالكاد سوى الشك بكل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شيء، عدم الارتواء الذي لا يفارقه، وترقب خبر مجهول...

إنه يطالع الصحف. فتيان يؤسسون كتائب فاشية، الحزب الشيوعي يتعاظم شأنه. الماديون والكاثوليك يناقشون المراسيم التي أصدرتها الحكومة بشأن التعليم.

إن الاستياء يظهر على صفحات الجرائد، والشك يجثم على وجوه الشبان.

- أعتقد أن مصيبة كبيرة ستقع...

الصحف تنبىء بأن الشعب يتقاطر على داخل ميناس جيرايس حيث توجد قديسة تشفي. أحداث مختلفة. تفاصيل يتلذذ بقراءتها.

كان باولو ريجر يشتهي أن يخنقهم جميعاً. لماذا لا يجد هؤلاء السعادة؟ لماذا لا ينسون مشاكلهم؟ لماذا ليسوا طيبين جداً؟ وتمنى أن يكون طيباً. أن يساعدهم جميعاً. لكنه لا يستطيع. إنه يكره الناس. ولا يغفر لهم بلاهتهم...

- لقد كنت المغامر الباحث عن السعادة... يا لي من دون كيشوت مسكين!

***

- أي يوم اخترت للسفر، يا معلم... أحد الكرنفال...

كان الحمال الأسود يتأسّف. أما هو، فلم يسمع، إذ كان منكمشاً على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نفسه، مغموماً. فنزل، ونادى تكسي.

ـ خذني إلى المرفأ.

ـ في أية ساعة يجب أن تكون هناك، يا سيد؟

ـ بعد أربعين دقيقة.

ـ هذا مستحيل، قال السائق. في يوم كرنفال كهذا يستغرق اجتياز الجادة ساعات وساعات.

ـ خذني إلى حيث تستطيع. سأكمل المسافة الباقية سيراً على القدمين...

نزل من السيارة، محاولاً أن يتحاشى الحشود المجنونة. كان الناس في الشوارع يرقصون. وراح باولو ريجر يشق طريقه بالقبضة والكوع. وهو يعصر قبعته بيديه، وشعره يتطاير، وعيناه تبرقان، والغيظ بادٍ على وجهه.

ـ ابتعدوا!

ـ هيه، أيها الأبيض، تعال نرقص...

واجتذبته الخلاسية. وتلاصقت الصرتان، واشرأب ردفها ملوّحاً باللذة...

ـ دعيني أيتها الخلاسية!

وانسلخ عن المكان، وعاد يشق طريقه بين الجماهير.

وأخيراً، ربما كان هذا الشعب على حق. لعل كل شيء كامن في الكرنفال...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ يا للبدلة الجميلة...!

والقت عليه الفتاة المهسترة قطرات من مطلِق العطر الذي في يدها.

ـ إذهبي إلى الجحيم!

ووجد نفسه أكثر تعاسة من ذي قبل. فيوم عاد من أوروبا، وكله غرائز، كان يحسن تذوق لذة الجسد. أما اليوم، فإنه شك وحسب...

وصل إلى السفينة في آخر لحظة. كان على متنها قليل من الركاب، إنكليز وأرجنتينيون، يمتعون بصرهم بمنظر المدينة وهي ترتدي حلتها الليلية. كان الليل قد هبط على ريو دى جانيرو. وراح باولو ريجر، وهو على سطح السفينة، يشبّه المدينة الكرنفالية الغارقة في الظلام،.بنفسه. وفجأة سطع النور في المدينة، فظهرت متألقة وهي تخرج من الظلام. وكانت السفينة تبتعد رويداً رويداً...

كان باولو ريجر هناك، متوتر الأعصاب، مزموم الشفتين، شائح البصر. وعلى الـ "كوركوفادو" يبدو المسيح. مفتوح الذراعين، وكأنه يبارك المدينة الوثنية. وتعاظم الحزن في عيني باولو ريجر. فرفع ذراعيه شاخصاً إلى التمثال العملاق وهو في أعلى درجات اليأس، وتمتم:

ـ أريد أن أكون صالحاً، يا سيّد! أريد أن أكون صافياً، يا سيّد...

وكانت بلاد الكرنفال تتلاشى في البعيد...

ريو ١٩٣٠


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

■ ... فلربما كان في الحب شيء آخر غير لذة الجسد. فالحب ليس فقط أن يستلقي رجل وامرأة في سرير، وتختلط الأحاسيس. أن ترقيع الجوارب، ومداعبة قط ارستقراطي أسود، لا ينام إلا على الوسادة، ولا يأكل إلا اللوبياء السوداء، والجدال حول اسم أول مولود، هي أيضاً الحب.

... والسعادة هي بنت الحقيقة، على الإنسان أن يصل الى السعادة من أقصر طريق. والدين يمكن أن يجلب السلام والفرح. كما أن التومانيين يلتقون مع الخوارنة، في صراع مستميت مع المتزمتين...